

## شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية

د. شفيق محمد عبدالرحمن الرقب

جامعة مؤتة

### مدخل

تكاثر شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، فقد ذكرت طائفة من الشعراء الذين اشتهروا بهذا الغرض، منهم أحمد بن منير الطرابلسي، وقد وُصِفَ بأنه كان "خبيث اللسان، مهيناً لأعراض الرجال، يسهل عليه الهوان، ولا يسلم أحد من هجائه"<sup>(١)</sup>، والرشيد النابلسي، وهو شاعر "شرس الأخلاق جافي الطباع، غليظ الجواب"<sup>(٢)</sup>، وملك النحاة الحسن بن صافي، وكان "مُرَّ الشتيمة"<sup>(٣)</sup>، وابن عُثَيْن، وقد وصفه معاصروه بأنه "سخيف اللسان، قبيح الهجاء، أُغري بهجاء الناس، وتمزيق أعراضهم.. قلّ أن سلم أحد من الرؤساء والملوك وأرباب العلم والمناصب من لسانه"<sup>(٤)</sup>، ومحمد بن يوسف السكاكيني من أهل حلب، كان "بذيء اللسان، هجاء شريراً ينقّي شره"<sup>(٥)</sup>، ومحمد بن يوسف التلعفري "له هجاء شنيع لم يسلم منه أحد"<sup>(٦)</sup>، والأديب العرمانّي محمد بن عياش "إنسان سوء قلّ أن سلم أحد من شرّه ولسانه، قد جعل هجيره الواقعة في أعراض الناس وتلقيبهم، ولم يترك أحداً من الأمائل بحلب إلاّ وأظهر له لقباً ونبزه به"<sup>(٧)</sup>، والملك الزاهر الأيوبي، كان "منطلق اللسان، مغرى بهجاء أسرته، وذوي الأقدار من الأمراء والصدور"<sup>(٨)</sup>، وسيف الدين السامري، كان "طويل الباع في الهجو"<sup>(٩)</sup>، وابن المسجّف العسقلاني، كان "أكثر شعره في الهجو"<sup>(١٠)</sup>. وغير هؤلاء كثير. غير أنه ينبغي أن يشار هنا إلى أن المصادر التي ترجمت لهؤلاء الشعراء لم تورد من شعرهم الهجائي إلاّ

القليل، بل إنَّ بعضها لم تذكر شيئاً منه، لذا فإنَّ هذه الدراسة تستقي المادّة الشعريّة من دواوين الشعراء الذين أكثروا من القول في الهجاء، مثل فتیان الشاغوريّ وابن الساعاتيّ وابن عنين، بالإضافة إلى ما لم يُنشر من شعر ابن منير الطرابلسيّ<sup>(١١)</sup>، وما أوردته كتب التراجم والاختيارات من هذا الشعر لأولئك الشعراء وغيرهم.

وثمة عوامل عدّة أدت إلى كثرة القول في الهجاء، بعضها شخصيّ يتعلّق بالخصومات والمنافسات بين الشعراء، أو بالعلاقات الخاصّة التي تربط بينهم وبين أبناء مجتمعهم، وبعضها يتّصل بظروف العصر وأحواله الاجتماعيّة، ومن هذه الظروف التفاوت الشديد في مستوى المعيشة بين فئات المجتمع، إذ يستشف من بعض الأخبار أنّ عامة الشعب كانت تعاني من الفقر، وأنه كان عليها أن تعمل في المهن اليدوية في المدن، أو في الفلاحة لدى المقطعين من الأمراء وغيرهم. وكانت تفرض على هذه الفئات، على فقرها، الضرائب التي تأكل ما لديها من دراهم وزروع<sup>(١٢)</sup>.

ومن هذه الظروف جور بعض الحكام والعمّال، وقد ذكرت المصادر صوراً مختلفة لهذا الظلم، وأوردت ضرباً متعدّدة من العقوبات التي كان يوقعها بعضهم على الناس، مثل الصّلب والتّسمير<sup>(١٣)</sup>.

ومن هذه الظروف الفساد الإداريّ الذي دبّ في الدولة الأيوبيّة بعد وفاة صلاح الدين، وتفتّت بلاده. فقد انتهز بعض العمال فرصة الصراع بين ورثة صلاح الدين، فطفق يعسف بالرعيّة، ويستصفي الأموال منها؛ فقد كان الوزير صفيّ الدين بن شكر "إذا لاح له مال عظيم احتجّنه"<sup>(١٤)</sup> وامتدّ هذا الفساد إلى عدد من القضاة الذين كانوا يظلمون الناس، ويستغلّون نفوذهم لجرّ الدنيا إليهم<sup>(١٥)</sup>.

بيد أنه يجب أن يُحترس هنا من تعميم الأحكام السّابقة على العصر كلّ،

فقد قام الزنكيون والأيوبيون بإصلاحات إدارية واجتماعية واسعة، ولكنه يبقى كغيره من العصور فيه الخير والشر، ومن ثمّ فإنّ هذه الدراسة تتناول بعض المظاهر السلبيّة في الحياة وموقف الشعراء منها، كما تمثّلت في شعر الهجاء.

وتتناول الدراسة جانبين من هذا الهجاء، هما: الهجاء الشخصي، والنقد الاجتماعي، أمّا الهجاء السياسي فلن تعرض له الدراسة لأنّه مازج شعر المدح والجهاد، وصار محوراً رئيسياً من محاوره، بالإضافة إلى أنّ الدارسين قد تناولوا هذا الشعر وعالجوا جوانبه.

### أولاً: الهجاء الشخصي

كثُر هذا النوع من الهجاء في بلاد الشّام زمن الحروب الصليبيّة، وتعدّدت دوافعه وأطرافه، ويمكن تصنيفه إلى ما يلي:

- أ- التهاجي بين الشعراء.
- ب- هجاء الأفراد.
- ج- هجاء المدن والبلدان.
- د- هجاء أماكن السكنى والمرافق العامّة.

#### أ- التهاجي بين الشعراء:

أشارت المصادر إلى بعض المساجلات الهجائية التي وقعت بين عدد من الشعراء الشاميّين، ومن هؤلاء الشعراء ابن منير الطرابلسي، وابن القيسراني، فقد ذكر العماد الأصفهاني في معرض ترجمته لابن منير أنّه "كان.... معارضاً للقيسراني في زمانه، وهما كفرسي رهان، وجوادي ميدان"، ووصفهما بأنّهما "جرير العصر وفرزده"<sup>(١٦)</sup>، ولم يصل إلينا من هذه المهاجاة إلاّ القليل، ويبدو أنّ العامل المذهبي كان له دور فيها، فقد "كان القيسراني سنياً متورّعاً، وابن منير مغالياً

متشيعاً<sup>(١٧)</sup>؛ لذا فعندما بلغ ابن القيسراني أن ابن منير هجاه كتب إليه<sup>(١٨)</sup>:

ابن منير هجوت مني      حبراً أفاد الورى صوابه  
ولم تضيق بذاك صدري      فإن لي أسوة الصحابه

ويبدو أن ابن منير كان سليط اللسان في هجائه لابن القيسراني، فقد نال في القصيدة التي أرسلها إلى ابن المستوفي يشكو له فيها ما فعله الحشيرة<sup>(١٩)</sup> في داره - نال من كرامة الشاعر، واتهمه في عرضه وشرفه، وذلك إذ يقول<sup>(٢٠)</sup>:

أتراني أكلت جذر عيالي      مثل ما كان يفعل القيسراني  
أم كفت الفلوس في خالد ابني      عام قادت عليه أم سنان

وينتهز ابن منير دخول ابن القيسراني دمشق، وقد صادف ذلك اندلاع حريق هائل في المدينة، ودخول أسراب من الجراد أتت على بساتينها وزروعها، وامتداد الأيدي بالسلب والنهب، فيسخر من الشاعر سخرية مريرة، إذ جعله رمزاً للشؤم وسوء الطالع، مستعيراً له شخصية (طويس) التي يضرب بها المثل في التطير، وذلك إذ يقول<sup>(٢١)</sup>:

يا طويس الشؤم هذي الحركة      ألحقت جلق بالموثقه  
جننها تذكرها عهداً مضى      من توالي الفتن المشتبه  
يا رسول القدر الحتم الی      كل من سد عليها مسلكه  
لك رجل قطعت لو جمعت      تحت كيوان لهدت فلكه  
شؤمها أسرى من السم فما      دب للملشوع إلا أهلكه

ويصور ابن منير ابن القيسراني وقد تحاماه الناس، وأخذوا يطردونه من كل مكان يحل فيه، فراح يتنقل من بلد إلى بلد حاملاً معه الويلات والمصائب:

شَرَدْتَهُ طَلْعَةَ إِنْ صَبَّحْتَ      أَرْضَ قَوْمِ غَبَقْتِهَا الدَكْدَكَةَ  
لَمْ يَمِلْ وَجْهًا إِلَى مَالِ ثَرٍ      قَطًّا إِلَّا تَرَكَتَهُ تَرْكُهُ  
لَا، وَلَا طَرَّ لَهَا شَدَقٌ عَلَى      مَأْمَنٍ إِلَّا وَأَمْسَى مَعْرَكُهُ

وتشفّ القصيدة عن الكراهية الشديدة التي يحملها ابن منير لابن  
القيسراني، لذا راح يدعو أولي الأمر في دمشق إلى دفع النّحس والخراب عن  
المدينة بطرد ابن القيسراني منها:

يا مجير الدّين من دلّ على      ربّك المأهول هذي الهلكة؟!  
من رمى مغناك، لا ريع، بمن      كلّ منجاة نحاها مهلكة؟!  
أي دار أمّها ما غمّها      أيّ ستر ضمّه ما هتكه?!

وتمضي القصيدة على هذا النحو من الإلحاح على استدعاء المعاني التي  
تصور شؤم ابن القيسراني وسوء طالعه، وكأنّ الشاعر بهذا يريد أن يحثّ الناس  
على نبذه، وعدم الاتصال به، أو التعامل معه.

ولم يقصر ابن منير هجاءه على ابن القيسراني من الشعراء، وإنّما هجا  
شعراء آخرين وهجوه، فقد كتب أبو نزار الحسن بن صافي المعروف بـ "ملك  
النحاة" إلى أحد القضاة وتصنّع في الكلام باستعمال لفظة (العاصوي) التي  
استغريها ابن منير، فقال هذه الأبيات ساخراً من أبي نزار وعلمه، ومستهجناً هذا  
القياس الشاذّ<sup>(٢٢)</sup>:

أيّا ملك النّحو والحاء من      تهجّيه من تحت قد أعجموها  
أتانا قياسك هذا الذي      يعجّم أشياء قد أعربوها  
ولمّا تصنّعت في "العاصوي"      غدا وجه جهلك فيه وجوها

وقالوا قفا الشيخ إن الملو ك إذا دخلوا قرية أفسدوها

فأثارت هذه الأبيات حفيظة أبي نزار، فردّ عليها بأبيات اتّهم فيها ابن منير بأنّه يغير على أشعار الآخرين ويدّعيها لنفسه، ووصفه بأنّه رجل يستحق التأديب، وأخذ عليه إسرافه في هجاء النّاس وذمّهم<sup>(٢٣)</sup>:

أيا ابن منير حسبت الهجا      ء رتبة فخر فبالغت فيها  
جمعت قوافي من ذا وذا      وأفسدت أشياء قد أصلحوها  
فقالوا: قفا الشيخ إن الملو      ك إذا أخطأت سوقة أدبوها

ومن الشعراء الذين كانوا يتبادلون الهجاء مع معاصريهم أبو الحكم الأندلسي، فقد وصفه ابن أبي أصيبعة قائلاً: "وكان أبو الحكم يهاجي جماعة من الشعراء الذين كانوا في وقته ويهاجونه"<sup>(٢٤)</sup>. ومن هؤلاء الشعراء الذين هجوا أبا الحكم العرقلة الكلبيّ، وقد استمدّ العرقلة معاني هجائه من مهنة الطب التي كان يعمل فيها أبو الحكم، فصوّره طبيباً جاهلاً يجلب الحتف إلى كلّ من يعالجه، على شاكلة قوله يدعو الله أن يريح النّاس منه، لأنّه طبيب شؤم لا يزور أحداً صباحاً، حتّى يكتب له قصيدة يرثيه فيها مساء<sup>(٢٥)</sup>:

لنا طبيب شاعر أشتر      أراحنا من شخصه الله  
ما عاد في صبحه يوماً فتى      إلّا وفي باقيه رثاه

وإمعاناً في السخرية من أبي الحكم يستعير العرقلة الكلبيّ طريقته في الهجاء، فيهجوه على سبيل المرثية (وهي طريقة اشتهر بها أبو الحكم كما سيّضح بعد)، كما في قوله يتصنّع أساليب الرّثاء تهكّماً واستهزاءً، لينتقل إلى الدّعاء على (المهجوّ المرثيّ)، لأنّه كان ضعيف العقيدة رقيق الدّين<sup>(٢٦)</sup>:

يا عين سحّي بدمع ساكب ودم  
قد كان لا رحمَ الرحمن شيبته  
على الحكيم الذي يكنى أبا الحكم  
ولا سقى قبره من صيّب الدّيم  
ويستحلّ دم الحجاج في الحرّم" "شيخاً يرى الصلوات الخمس نافلة

وهذه المراثي الهجائية ممّا اشتهر به أبو الحكم الأندلسيّ نفسه، ولعلّها تدلّ على سخريّة أبي الحكم من المصير الإنسانيّ، بالإضافة إلى السخريّة من المهجور نفسه، وممّا زاد هذه السخريّة حدّة أنّها كانت تصدر عن شخص وصفه معاصروه بأنّه كان "محبّاً للهو والخلاعة...محبّاً للشّراب مدمناً له"<sup>(٢٧)</sup>. وممّن نحا أبو الحكم في هجائهم هذا النحو ابن منير الطرابلسيّ، وابن القيسرانيّ، والأديب نصير الحلبيّ، والطبيب المفشكّل اليهوديّ. فها هو ذا يندب نصيرا الحلبيّ - وكان قد اشتغل بالكتابة والشعر والطب والنجوم- ويصوّره وقد وضِعَ في القبر فيضجّ الأموات منه، ويمعنون في الهرب من قبورهم لوضاعة هذا الزائر وخبثه وتنت رائحته<sup>(٢٨)</sup>:

يا هذه قومي انديبي  
يرحمه الله لقد  
قد ضجّت الأموات من  
وودّهم لو عوّضوا  
والقوم بين صاوخ  
ومنكّر يقول ذا  
ما ضمّ بطن الأرض بيّ  
أخبث منه طينة  
وقوله لمنكّر  
أما علمت أنّني  
مات نصير الحلبي  
كان طویل الذنب  
نكته في الثّرب  
منه بكلب أجرب  
وممعن في الهرب  
أوضع ميت مرّ بي  
ن شرقها والمغرب  
في عجمها والعرب  
أسرفت يا معذبي  
شيخ لأهل الأدب

والنحو والحكمة والمنطق ————— ق والتطَبُّب

وإذا كان أبو الحكم قد رثى في الأبيات السابقة شخصاً لم يمتَّ هجاءً له  
وسخرياً منه، فإنه هجا في الأبيات التالية ابن القيسراني وابن منير الطرابلسي بعد  
أن ماتا، وهي أبيات تشفَّ عن رغبة أبي الحكم في السخرية والهزل، وتظهر قدرته  
على التفنن في إخراج الصور التي تستثير الضحك: (٢٩)

ثمَّ عهدي به وقد أنزلوه القبر	ر بين منكر ونكير
ثمَّ قالاً له ألم تك في التجيـ	م بين إفك وزور
ثمَّ أسرفت بعد ذلك في قو	لك بين المنظوم والمنثور
تُفحش الهجو ليس تُبقي على شيـ	خ ضنين بعرضه مستور
فألحاً عليه صفعاً ولم ينفعـ	ه عذر، وما له من نصير
ثم لم يكثر بذلك لولا	ما رأى من شماتة ابن منير
عندما جاءه يفهقه ضحكاً	وينادي هذا من التعثير

ويجادل ابن منير ابن القيسراني، وتحتدم المجادلة بينهما، وترتفع  
أصواتهما، ثم يتعاركان في القبر. ولا ريب أن هذا يذكرنا برسالة الغفران لأبي  
العلاء المعري، وما فيها من خصومات بين الشعراء في الدار الآخرة، ولعل أبا  
الحكم الأندلسي قد تأثر بذلك.

ولم يشتهر في الهجاء شاعر شامي، زمن الحروب الصليبية، كما اشتهر  
ابن عنين، فقد أكثر من القول في هذا الموضوع، واتسعت دائرة مهجويته من  
الشعراء وغير الشعراء وفي ذلك يقول أبو العباس الدنيسيري، ويذكر أخاً لابن  
عين كان قاطع طريق (٣٠):

أصاب الناس من ولدي عنين شدة وشقا



قد اجتمعوا على ضرِّ  
كأنهما، عـدمتهما،  
عظيم الخطب وانفقوا  
على الإفساد قد خُلقوا  
فذا الأعراض يقطعها  
وهذا يقطع الطرقا

ومن الشعراء الذين أكثر ابنُ عنين في هجائهم الرّشيد النابلسيّ، وجُلّ هجائه له كان فاحشاً، ومن أقلّه فحشاً البيتان التاليان اللذان يقرنه فيهما بالكلب خسة ووضاعة: (٣١)

شكا شعري إليّ وقال تهجو  
فقلت له تسلّ، فربّ نجم  
بمثلي عرضَ ذا الكلب اللئيم  
هوى في إثر شيطانٍ رجيم

ويبدو أنّ سلاطة لسان الرّشيد النابلسيّ قد ألّبت ابن عنين وغيره من الشعراء عليه؛ فهجوه لعلّهم يسكتونه، ومن هؤلاء القاسم الواسطيّ الذي ألحّ في هجائه على تصوير رداءة شعر الرّشيد وفساده، حتّى إنّه ألّف رسالة فيما أخذ عليه في قصيدة نظمها في الإمام النّاصر (٣٢). وقد كان الرّشيد النابلسي أبخر، فاستغلّ الواسطيّ هذه الصفة لتوليد المعاني التي تصف رداءة شعره، كما في قوله جاعلاً رائحة فمه مسبّبة عن ذلك الشعر الرديء: (٣٣)

يا مَنْ تأمّل مدلويـ  
انظر إليّ بخر بفيـ  
هـ وشكّ فيما يُسقمه  
هـ وما أظنّك تفهمه  
نفس يغيّره فمه  
نننن بشعرٍ ينظمه  
لكنمّا أنفاسه

#### ب- هجاء الأفراد:

شمل هذا الهجاء شخصيات كثيرة في المجتمع، وقد صور الشعراء فيه

بعض النماذج البشرية التي تخرج في سلوكها عن المثل الأعلى للحياة الخلقية والنفسية القويمة. ويتصل قسم كبير من هذا الهجاء بالحاجة المادية للشاعر، أو قل بتقصير المهجّوين في حقّ الشاعر فيأخذ في رميهم بصفات تصوّر بخلهم وتقتيرهم؛ فقد قصد القاضي الرقيّ علي بن مشرق شيرز، فلم يحظ عند أهلها، فقال أبياتاً نعى فيها إلى الناس الجود في تلك المدينة<sup>(٣٤)</sup>:

ألا نادٍ في شرق البلادِ وغربها	بصوت له في الخافقين أغاريدُ
قضى الخير والمعروف في أرض شيرز	ومات بها من لؤم صاحبها الجودُ
وأعجب ما لله أولاد منقذ	قدورهم بيض وأعراضهم سودُ

أما العرقلة الكلبية فقد مدح قوماً، فأعطوه شعيراً بدلاً من المال، فقال يذمّهم ويصفهم بالبهائم<sup>(٣٥)</sup>:

يقولون لم أرخصت شعرك في الوري	فقلت لهم إذ مات أهل المكارم
أجازى على الشعر الشعير وإته	كثير إذا استخلصته من بهائم

ويمدح ابن المسجّف العسقلانيّ قوماً أملاً في عطائهم، فيعود من عندهم خائباً، فيقول فيهم أسفاً على ضياع عمره في مدحهم حيناً، وفي ذمّهم حيناً آخر<sup>(٣٦)</sup>:

ولقد مدحتهم على جهل بهم	وظننتُ فيهم للصنعة موضعا
ورجعت بعد الاختبار أذمّهم	فأضعت في الحاليين عمري أجمعا

ولم يكن البخل هو الصفة الوحيدة التي رمى بها الشعراء مهجّويهم، وإنما وصفوهم بنعوت أخرى تحطّ من مكانتهم، وألصقوا بهم، الصفات المستهجنة. فهذا ابن المسجّف يذمّ جماعة من أصحابه، لأنهم جبناء لؤماء بخلاء، لا يصدقون أمل

آمل، ولا يؤدون الصداقة<sup>(٣٧)</sup>.

يا رب كيف بلوتني بعصابة  
جبناء ما استتجدتهم لملمة  
فوجوههم عوداً على أموالهم  
هم في الرخاء إذا ظفرت بنعمة  
ما فيهم فضل ولا إفضال  
لؤماء ما استترفتهم بخال  
وأكفهم من دونها أفعال  
آل وهم عند الشدائد آل

ويدعو ابن الساعاتي على دار أحد مهجوييه بالخراب، لما كان يدور فيها  
من أحاديث الكذب والبهتان، ولاتصاف صاحبها بالخيانة والبخل وثقل الروح، وذلك  
إذ يقول: <sup>(٣٨)</sup>

يا دار الأكرم لا أشوتك صاعقة  
فربّ يوم غدونا في عراصك أكال  
تبت يدها فكم في كلّ جارحة  
ذو النفس مخلوقة في النقل من رُحل  
ولا أصابتك في محل يد السحب  
ين للسحت سمّاعين للكذب  
منه، وإن عدّ فرداً من أبي لهب  
والكف مطبوعة من عقدة الذنب

وقد تناول الشعراء الصفات الجسدية لمهجوئهم، وحاولوا أن يصوروا هذه  
الصفات تصويراً ساخراً، على نحو ما فعل المسجّف العسقلاني عندما هجا شخصاً  
نحياً أحول، معتمداً على المفارقة اللفظية التي تثير الضحك<sup>(٣٩)</sup>:

وغريّر كأنه غصن تين  
قلت: ما الاسم قد أطال عنائي؟  
أحول المقلتين مرّ لماء  
قال: مسعود، قلت: من لا يراه

ويسخر سالم بن مؤمن المعريّ من إنسان كبير الأنف مضخماً من  
صورته: <sup>(٤٠)</sup>

إن كنت مفتخراً بأنفك      فهو قد بلغ السماء  
لو كنت تصلح للإمارة      لم يكن إلا لسواء

ويؤكد العرقلة الكلبى الذم بما يشبه المدح عندما يصف أحد مهجوييه،  
فيصوره صاحب وجه كاسف، وقوام قصير منقصف، وبنان شحيح لا يقطر بأي  
خير، وذلك إذ يقول: (٤١)

لك وجه كأنه البدر لکن إذا كُـسِفَ  
وقوام كأثمه الغصن لکن إذا قُـصِفَ  
وبنان كأثمه البحر لکن إذا تَشِفَ

ومن الأفراد الذين أكثر الشعراء من هجائهم الأطباء، ولعلّ هذا يعود إلى  
أنّ بعض الذين اشتغلوا بالطب لم يكونوا مؤهلين لذلك، وأنهم لم يحسنوا معالجة  
مرضاهم، وربما جلبوا الأذى لهم (٤٢). وقد رأينا طرفاً من هذا الهجاء في هجاء  
العرقلة لأبي الحكم الأندلسي. وتكاد جلّ الأشعار التي قيلت في هجو الأطباء  
تدور حول فكرة رئيسية واحدة هي تصوير جهلهم بأصول هذه المهنة، وعدم  
معرفتهم بقواعدها العلمية والعملية، كقول الشاعر الطبيب سديد الدين بن رقيقة  
يهجو أحد الأطباء ويدعوه إلى ترك هذه المهنة لأنه جاهل بها، مصوراً الخطر  
الذي يمثله هذا الطبيب الجاهل على أرواح الناس، حتى إنه غدا أشدّ خطراً عليهم  
من الوباء: (٤٣)

أي فاعلاً خَلَّ التَطَبُّبُ واتَّيَدُ      فكم تقتل المرضى المساكين بالجهل  
فتركيب أجسام الأنام مؤجل      فليم، لا كلاك الله، تعجل بالحل  
بهرت الوبا إذ قتلك الناس دائماً      وذلك في الأحيان يحدث في فصل

وقد هجا ابنُ خروف الطبيبَ الدَّخْوَارَ بعدد من المقطوعات حاول أن يبيِّتَ فيها روح السخرية التَّهكُّمِيَّة، كما في قوله يجعلُ الطبَّ سيفاً يصول به الدَّخْوَارُ على أرواح العباد: (٤٤)

طَبَّعَ المَهْدَبَ طَبَّه      سَيْفاً وصال على المهج  
بابُ السَّلامَةِ لا يُرى      منه، ولا باب الفرج

ولم يُهَجِّج من الأطباء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبيَّة أحد كما هجى الطبيب موقِّق الدين بن المطران، مع أنَّه كان "أمير أهل زمانه في علم صناعة الطب وعملها" (٤٥) ولعلَّ ذلك يعود إلى شخصيَّة ابن المطران، فقد كان -على علمه- يغلب عليه "الزَّهو بنفسه والتكبر حتَّى على الملوك" (٤٦)، لذا تناول الشعراء هذه الصفة، وعرضوها عرضاً ساخرًا، على شاكلة قول ابن عنين يَصوِّر ابن المطران يتجوَّل في شوارع دمشق متكبِّراً مختالاً، وقد تبعه غلامه (عمر) (٤٧):

متى أرى سيِّدي الموقِّق يختا      ل ضحى في عراصها الرِّحْبِ  
يمشي الهوينى وخلفه عمر      يختال مثل المهاة في السَّربِ  
وسَيِّدي كَلَمَّا تَأَمَّلَه      تاه وأبدي غرائب العجبِ  
تجمسُ قَلَّ من يناظِرُه      في الناس إلا تعفُق الرِّحبي

وقد كان ابن المطران نصرانيًّا، فأسلم، إلَّا أنَّ ابن عنين ظلَّ يشكِّك في هجائه له، في صحَّة إسلامه، ويربطه بحبه لـ (عمر) الذي سبق ذكره، وهو غلام مسلم "في غاية جمال الصورة" (٤٨)، كما في قوله يحمده الله -ساخرًا- على هداية ابن المطران، لينفذ من ذلك الحمد إلى الإقذاع في هجائه: (٤٩)

الحمد لله واجب الشُّكر      فقد اهتدى سيِّدي أبو نصرِ  
واتَّبَعَ الحقَّ حين لاح له      فجر الهدى من دجَّة الفجرِ

وقال إنّ المسيح ليس بمعبود، وأفتى الصليب بالكسر  
 ما ذاك إلا سترٌ على عمرٍ فقلت يا قوم إنّ في عمر  
 شكت له أخته لهيب.....

وقد لجّ ابن عنين في هجاء ابن المطران، فأبغضه وحرّض السلطان على  
 نفيه،<sup>(٥٠)</sup> ويبدو هذا الهجاء في بعض صورته ضرباً من التجارب الأسلوبية التي  
 تستهدف إظهار القدرة على الإتيان بالصور والمعاني، كما في قوله ينسب إلى  
 العامة زعمها أنّ ابن المطران قد تشيّع، ثمّ يعجب من هذا الزعم لأنّ الذي دعاه  
 إلى الإسلام هو (عمر!!)<sup>(٥١)</sup>

قالوا الموقّق شيعيّ فقلت لهم هذا خلاف الذي للناس منه ظهر  
 وكيف يجعل دين الرفض مذهبه وما دعاه إلى الإسلام غير عمر؟!!

وقد هجا بعض الشعراء، في إطار الهجاء الفرديّ، أقاربهم. فقد هجا سيف  
 الدين السّامريّ خاله وخال أبيه<sup>(٥٢)</sup>، وهجا أبو الفتح البلطيّ ابن عمّه وتبرأ منه<sup>(٥٣)</sup>.  
 وكان ابن روبيل الأبار، على صلاحه ونسكه، "مغرى بهجاء زوجته، لأنّها أشارت  
 عليه أن يمدح كبيراً فما نفع، فهجاه فصنع، فقال لولا زوجتي لما صفعت، ولولا  
 تغريرها لما وقّعت"<sup>(٥٤)</sup>. وقد أفحش ابن روبيل في هجاء هذه الزوجة، كما في قوله  
 يرميها بالفسق والفجور<sup>(٥٥)</sup>:

لي قطة أنظف من زوجتي و ..... أنظف من فيها  
 وكلّ ما صورّه ربّنا من الخنا مرّكب فيها

وهجا ابن عنين أباه بأبيات أشبه ما تكون بالاعتراف الذاتيّ بإحساس

الشاعر بمركّب النقص من جهة هذا الأب، إذ جعله سبب معاناته في هذه الحياة، وعلّة شعوره بالنقمة على الآخرين؛ فهو الذي جنبه فعل الخير، وجذبه إلى رديء الأعمال؛ لأنه إنسان ضئيل القدر، وضيع الهمة، كثير العيوب، جمّ المفاسد، أينما توجه لا يأتي بخير، وقد ورث الشاعر ذلك كلّه، يقول: (٥٦)

وجنبني أن أفعل الخير والد      ضئيل إذا ما عدّ أهل المناسب  
بعيد عن الحسنى قريب من الخنا      وضيع مساعي الخير، جمّ المعايب  
إذا رمت أن أسمو صعوداً إلى العلى      غدا عرقه نحو الدنيّة جاذبي

وأخيراً فقد هجا بعض الشعراء أنفسهم، ولعلّ هذا الهجاء كان يصدر أحياناً عن إحساسهم بالنقص، فقد كان العرقلة الكلبّي شيخاً دميماً أعور، فقاده إحساسه بافتقاد ميسم الجمال إلى التندر بنفسه، كما في قوله (٥٧):

حاجتي شقّة تشقّ على ك      لّ بغيض من الورى وحسود  
ذات لون كمثل عرضك لا عر      ضي، وحظي من القريب البعيد  
فأبعثتها صفيقة مثل وجهي      جلّ من صاغ جلده من حديد  
واجعلناها طويلة مثل قرني      ولساني، لا مثل قديّ وجيدي  
كي أرى في الشام شيخاً خليعاً      في قميص من العراق جديد

وعندما طالب الملك المعظم عيسى الشاعر ابن المسجف العسقلاني بالزكاة، رفع إليه الشاعر مقطوعة نزه فيها الملك أن يحصل الزكاة منه، لأنّ ماله حرام، ولأنه لا يصوم ولا يصلي (٥٨):

أيا ملكاً حوى علماً وجوداً      وحاز لكلّ مكرمة وفضل  
يكأفني البهائم زكاة مال      حرام كلّه من غير حلّ  
وكيف يقوم بالزكوات من لا      يصوم ولا يحجّ ولا يصلي

## ج - هجاء المدن والبلدان:

شاعت في الشعر الشامي زمن الحروب الصليبية ظاهرة هجاء المدن والبلدان، فقد هجا الشعراء دمشق، و حلب، وبخارى، وسامراء، ومصر، وغيرها من البلدان الشامية وغير الشامية. ولعلّ هذا الهجاء يناقض ظاهرة مدح المدن التي ذاعت في الشعر الشامي آنذاك<sup>(٥٩)</sup>. وتختلف دواعي هذا الهجاء من شاعر إلى آخر، فقد يكون الدافع مذهبياً على ما كان من هجاء ابن منير الطرابلسي لدمشق وأهلها، وذلك في سياق القصيدة التتريّة التي تحدّث فيها بأسلوب هزليّ عن بعض معتقدات الشيعة، إذ حمل فيها على أهل دمشق، وجردهم من القيم والفضائل، فوصفهم بالضلال وضعف الدين، والطيش، إلى غير ذلك من الصفات التي تزري بهم، وذلك في قوله: (٦٠)

وأَعْنَتِ ضَلالَ الشَّأ	م على الضلال المشتهر
وسكنت جأق واقتدي	ت بهم وإن كانوا بقز
بقر ترى بحاليمهم	طيش الظلم إذا نقز
وهواؤهم كهوائهم	وخليط مائهم القنز
وعلمهم مسـتجهل	وأخو الديانة محتقز
وخفـيفهم مسـتثقل	وثقيلهم فيه العبـز
وطبـاعهم كجبـالهم	جبلت وقـدّت من حـجز

أمّا ابن عنين، وهو شاعر سنيّ، فقد اكتفى وهو يهجو حلب بالحديث عن الخلافات المذهبية التي نشبت بين أبناء المدينة، وعدّ ذلك ممّا يؤخذ عليها، بالإضافة إلى عيوب أخرى. يقول<sup>(٦١)</sup>:

لا عادَ في حلب زمان مرّ لي      ما الصبح فيه من المساء بأمثل



سيان في عرصاتها راد الضحى  
في معشر لعنوا عتيقاً، لا سقوا  
قوم عهد رجالهم محلولة  
عندي وديجور الظلام المسبل  
صوب الغمام، ومعشر لعنوا علي  
أبدأ وعهد نسائهم لم يحل

وقد لا يجد شاعر أو آخر تقديراً من أهل المدينة التي يقيم فيها، فيهجوها،  
على نحو ما فعل ملك النحاة في هجائه لدمشق، مازجاً هذا الهجاء بالتذمر  
والتهديد، وذلك إذ يقول: (٦٢)

لأرطن مطيتي عن بلدة  
ولأرمين دمشق غير مُحجّف  
ولأزجرن العيس عنها معرضاً  
فإلام أغضي في دمشق على قذى  
شعئا يكره مأوها وهوؤها  
بفواقر التيست لها أبنائها  
إن أقدرتني دولة ولوؤها  
والأرض نازحة بها أرجؤها

وأكثر ابن دنينير من هجاء أهل دمشق، لأنه لم يلق منهم التقدير الذي  
يعتقد أنه يستحقّه، وكان شديد الوطأة في هذا الهجاء، على نحو ما نرى في  
الآبيات التالية التي يصفهم فيها بأنهم مطبوعون على اللؤم والجهل والبخل وقول  
الزور، ومفطورون على فساد الأخلاق وانعدام الغيرة على الأعراض (٦٣):

لم أجد بالشام من يرجى له  
خلقوا للؤم طزاً والخنى  
ودمشق جنّة قد ملئت  
لا يجودون بمال أبدا  
ما يرى العافون حظاً لفم  
جود كفّ لفتيل أو نقيير  
ومقال الزور والجهل الغزير  
من أهاليها بأرياب السعير  
بل يجودون برّيات الخدور  
عندهم، بل عندهم حظّ.....

وعدم التقدير هذا نجده واضحاً في هجاء ابن الساعاتي لمصر، وقد بالغ

في هذا الهجاء، فشمّل به نهر النيل نفسه، وذلك في قوله<sup>(٦٤)</sup>:

وَهَا مِصرَ لَا يَقْضَى بِهَا حَاجُ طَالِبٍ      بَغَاهَا، وَلَا يُمَضَى لَدِي أَمَلِ حَكْمٍ  
لَأَبْحَرَ مِنْهَا النَّيْلَ وَهُوَ مَجَاجَةٌ      مِنْ الْبِخْلِ، لَا بَلْ أَظْلَمَ الْقَمَرُ التَّمَّ

ويشعر الحافظ ابن عساكر بالغرابة في أثناء إقامته في نيسابور، فيذمّ المدينة أهلاً ومناخاً، قائلاً<sup>(٦٥)</sup>:

لَا قَدَسَ اللَّهُ نَيْسَابُورَ مِنْ بَلَدٍ      مَا فِيهِ مِنْ صَاحِبٍ يَسْلِي وَلَا سَكِنٍ  
لَوْلَا الْجَحِيمُ الَّذِي فِي الْقَلْبِ مِنْ حَرَقٍ      لَفَرَقَةَ الْأَهْلَ وَالْأَحْبَابِ وَالْوَطَنِ  
لَمَتَ مِنْ شِدَّةِ الْبَرْدِ الَّذِي ظَهَرَ      آثَارَ شِدَّتِهِ فِي ظَاهِرِ الْبَدَنِ

#### د - هجاء أماكن السكنى والمرافق العامة:

تناول بعض الشعراء بالهجاء أماكن سكناهم، ويرتبط هذا الهجاء بالشكوى من انعدام السكن والطمأنينة، والتذمر من الفقر والحرمان، فقد ذمّ كمال الدين بن الأعمى دار سكناه في قصيدة أولها<sup>(٦٦)</sup>:

دَارٌ سَكَنْتَ بِهَا أَقْلَ صَفَاتِهَا      أَنْ تَكْثُرَ الْحَسْرَاتُ مِنْ حَشْرَاتِهَا

وقد أطال الشاعر في وصف الحشرات التي تستوطن هذه الدار التي نزع عنها الخير وتباعده، ودنا إليها الشرّ من جميع جهاتها، وعبر عن آلامه ومعاناته الشديدة من لدغ الحشرات، وأصواتها المزعجة، والروائح الكريهة التي تصدر عنها يقول:

مِنْ بَعْضِ مَا فِيهَا الْبَعُوضُ، عَدَمَتَهُ      كَمْ أَعَدَمَ الْأَجْفَانَ طَيْبَ سِنَاتِهَا  
وَتَبَيَّتُ تَسْعِدُهَا بَرَاغِيثُ مَتَى      غَنَّتْ لَهَا رَقِصَتْ عَلَى نَعْمَاتِهَا

وبها ذباب كالضباب يسدّ عي  
وبها خفافيش تطير نهارها  
وبها من الجرذان ما قد قصرت  
وبها خنافس كالطنافس أفرشت  
من الشمس، ما طربي سوى غنائها  
مع ليها، ليست على عاداتها  
عنه العتاق الجرذ في حملاتها  
في أرضها، وعلت على جنباتها

ويمضي الشاعر في قصيدته على هذا النحو من تصوير الحشرات  
والزواحف التي تقيم في داره، فيذكر العقارب التي ترتع في ساحاتها، واليوم التي  
تعكف في جنباتها، وبنات وردان التي يفوت العين كنه ذواتها، والنمل السليمانيّ  
التي تحطم جلده ويعاني من سطواتها، وغيرها... ويصف خلال ذلك قدم هذه الدار  
التي استوطنتها الجنّ، وتصدّع جدرانها، وتهدم سقفها، فيقول:

قد رممت من قبل أن يلقي لآ  
شاهدت مكتوباً على أرجائها  
لا تقربوا منها وخافوها ولا  
دم أمنا حواء في عرفاتها  
ورأيت مسطوراً على عتباتها  
تلقوا بأيديكم إلى هلكاتها

ويخلص الشاعر من هذا الوصف إلى الحديث عن آلامه ومعاناته من  
الإقامة "مفرداً" في هذه الدار التي وصفها بأنها "جهنم الدنيا":

كم بتّ فيها مفرداً والعين شو  
وأقول يا رب السموات العلى  
أسكنتني بجهنم الدنيا ففي  
قأ للصباح تسحّ من عبراتها  
يا رازقاً للوحش في فلواتها  
أخراي هب لي الخلد في جنّاتها

والقصيدة بعد هذا كله تشفّ عن تضجّر الشاعر من حياته، وافتقاده  
للملاذ الذي يطمئنّ إليه، والصديق الذي يأنس به، وقد تناثرت في القصيدة بعض  
الصور التي تشي بذلك، فقد قرن الشاعر، مثلاً، لدغ العقارب بإساءة الأقارب

والأصدقاء إليه، داعياً الله أن يحميه من ذلك:

وبها عقارب كالأقارب رتعا      فينا، حمانا الله لدغ حماتها

وحين تحدّث الشّاعر عن الأفاعي التي أقامت في الدّار استعار صفات لا  
تكون إلاّ في بشر:

كيف السبيل إلى النّجاة ولا نجا      ة ولا حياة لمن رأى حيّاتها  
السمّ في نفثاتها، والمكر في      فلتاتها، والموت في لفتاتها

بل إنّ المبالغة في التّصوير قد تدلّ على أنّ الشّاعر كان يرمي إلى أبعد  
من المدلول الحرفي للصورة التي يرسمها للحشرة، كما في قوله يصف (الجراحات)  
التي يسببها له (القراد):

وبها قراد لا اندمال لجرحها      لا يفعل المشراط مثل أداها  
أبدأ تمصّ دماءنا فكأنّها      حجامة لبدت على كاساتها

وعندما أنهى الشّاعر قصيدته سأل الله -تعالى- أن يجمع شمله بمن  
يهواه، ويجد السكينة في جواره، ويؤنس وحدته:

واجمع بمن أهواه شملي عاجلاً      يا جامع الأرواح بعد شتاتها

وكثّر في الشّعر الشاميّ زمن الحروب الصليبيّة هجاء الحمّامات، ولعلّ  
هذا يعود إلى سعة انتشارها، وافتقاد قسم منها للنّظافة وشروط السلامة العامّة. فقد  
دخل كمال الدين بن الأعمى نفسه حمّاماً ضيقاً، شديد الحرّ، ليس فيه ماء بارد،  
فقال يذمّه، ويصف من يدخله، مصوراً شدّة حرارته، وإظلام نواحيه، وضيق بابه

الذي يشبه طاقة سجن، وفضاظة القائم عليه، وسوء معاملته للناس<sup>(٦٧)</sup>:

إِنَّ حَمَامَنَا الَّذِي نَحْنُ فِيهِ      قَدْ أَنَاخَ الْعَذَابَ فِيهِ وَخَيِّمَ  
مَظْلَمِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالنَّوَاهِي      كُلَّ عَيْبٍ مِنْ عَيْبِهِ يَتَعَلَّمُ  
حَرَجَ بَابِهِ كطَاقَةِ سَجْنِ      شَهِدَ اللَّهُ مَنْ يَجْزِي فِيهِ يَنْدُمُ  
وَلَهُ مَالِكٌ غَدَا خَازِنَ النَّارِ      رِ، بَلَى مَالِكُ أَرْقٌ وَأَرْحَمُ  
كَلَّمَا قَلْتِ قَدْ أَطَلْتِ عَذَابِي      قَالَ لِي اخْسَأْ فِيهِ وَلَا تَتَكَلَّمِ  
قَلْتِ لَمَّا رَأَيْتَهُ يَتَلَطَّطِي:      رَبَّنَا اصْرَفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ

وقد زار جوبان القوَّاس حمَّاماً، مخدوعاً بظاهره وما عليه من نقوش  
وتصاوير، فما أن دخله حتَّى أخذت الروائح الكريهة تتصاعد منه، واكتنف الظلام  
حجراته، وأخذ يسير فيه متلمساً طريقه كالأعمى:<sup>(٦٨)</sup>

جئْتُ أريدَ الحَمَّامَ يوماً      فغَرَزِي النَّقْشَ وَالْحَصِيرُ  
حَتَّى إِذَا جَزَتْ نِلْتِ رِيحاً      كَأَنَّمَا تَتَبَشُّ الْقَبُورُ  
أَنْقَلُ خَوْفَ الْوَقُوعِ رَجْلِي      فِيهَا كَمَا يَنْقَلُ الضَّرِيرُ  
وَكَلَّمَا جَاءَ لَهَا زَيْوَنُ      قَلْنَا: أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرُ!؟

ويحصي الأسعديّ مجموعة من العيوب والمساوي التي عاينها في أحد  
الحمَّامات التي دخلها، وهي عيوب تصور عدم اهتمام القائمين على الحمام  
بنظافته والعناية به، وذلك إذ يقول:<sup>(٦٩)</sup>

رَأَيْتِ لِحَمَامِكُمْ سِتَّةَ      يَظَلُّ لَهَا كُلُّ طَلْقِ عَبُوسَا  
هَوَاءٍ تَجَمَّدَ مِنْهُ الرُّؤُوسُ      وَمَاءُ يَذِيبُ الْكَلْبِي وَالنَّفُوسَا  
وَسَقْفٌ يَدْرُ كَفَيْضِ الْغَمَامِ      وَأَرْضٌ تَمَانَعُ عَنْهَا الْجُلُوسَا  
وَطِينٌ تَغْرَغُرُ مِنْهُ الْحَلُوقُ      "وَعِشْوَاءُ تَمْنَحُ"<sup>(٧٠)</sup> رُوحاً خَسِيْسَا

## ثانياً: النقد الاجتماعيّ

لم يقف الشعراء الشاميون زمن الحروب الصليبيّة عند حدود الهجاء الشخصي، وإنما تعدوه إلى نقد بعض مظاهر الفساد الاجتماعيّ، والتتديد بها، وتصوير معاناة النَّاس منها، ودعوة أولي الأمر إلى إزالتها والقضاء عليها. وهم في ذلك كلّهم كانوا يتمنّون مشاعر العامّة، ويصدرون عنها. وقد تعدّدت مجالات النقد الاجتماعيّ آنذاك، فشملت الحكم والإدارة، والقضاء، وظاهرة الكسب غير المشروع، والفقهاء، والمتصوّفة، وسدنة المساجد، وغير ذلك.

وقد كثر الشعر الذي انتقد أجهزة الحكم والإدارة، وكان هذا النقد يوجه إلى الحكّام مباشرة، بحيث يبيّن الشعراء فيه مواضع الخلل والفساد، ويوجهون الأنظار إليها دون مواربة. فعندما تفاقم ظلم السامريّ وزير الملك الصالح إسماعيل، أرسل الفقيه شمس الدين المقدسيّ إلى الملك الصالح قصيدة اصطنع فيها أسلوب الوعظ والنصح، شاكياً إليه فساد حاشيته وسوء صنيعهم، وسماهم له واحداً واحداً، آخذاً عليه اعتماده على مثل هؤلاء المفسدين، ولا سيما على ثعلب وفضيل المنجمين اللذين أكثر الملك الصالح من استشارتهما. يقول: (٧١)

يا مالكا لم أجد لي من نصيحتة	بدأ، وفيها دمي أخشاه منسفا
اسمع نصيحتة من أوليته نعماً	يخاف كفرانها إن كفّ أو تركا
والله لا امتدّ ملك مدّ مالكة	على رعيتيه من ظلمه شبكا
ترى الحسود به مستبشراً فرحاً	مستغرباً من بوادي أمره ضحكا
وزيره ابن غزال والرّفيع له	قاضي القضاة ووالي حربه ابن بكا
وثعلب وفضيل من هما، وهما	أهل المشورة فيما ضاق أو ضنكا
جماعة بهم الآفات قد نُشرت	والشّرع قد مات والإسلام قد هلكا
ما راقبوا الله في سرّ وفي علن	وإنما يرقبون النّجم والفلكا

إن كان خيراً ورزقاً واسعاً فلهم أو كان شراً وأمراً سيئاً فلكما

وكتب سيف الدين السامريّ إلى طوغان حاكم البيرة، وأسندمر حاكم طرابلس أبياتاً استنكر فيها خضوعهما لأستادارهما العلم سنجر ونائب البرّ الشجاع همّام، مصوراً سيطرة هذين الرّجلين على شؤون الحكم، واهتمامهما بشؤونهما الخاصّة، واستخفافهما بالرّعيّة، واستحلالهما دماءها وأموالها. يقول: (٧٢)

اسم الولاية للأمير وماله	فيها سوى الأوزار والآثام
وجباية القتلى وكلّ مصيبة	تجبي منافعها إلى همّام
سيفان قد وليا وكلّ منهما	ماضي العزائم دائم الإقدام
وبباب كلّ منهما علم ينك	ل ما وجود به من الإنعام
ما التّاس عندهما بناس لا ولا	يريان هذا الناس كالأنعام
وقد استحلا منهم ما لم يزل	من مالههم ودمائهم بحرام
فمتى أرى الدنيا بغير سناجر	والقطع والتكيس للأعلام

واستهجن شعراء آخرون سياسة بعض الحكام التي تخالف المعهود في سياسة الدولة الإسلاميّة، فعندما استوزر الملك الأمجد بهرام شاه مهذبّ الدين السامريّ، قال فتيان الشّاغوريّ أبياتاً استغرب فيها أن يقوى نفوذ اليهود في دولة الملك الأمجد، وأنكر عليه استيزاره للسامريّ الذي أكثر من استخدام أقاربه من السّمرة، فـ "كثّر منهم العسف وأكل الأموال والفساد" (٧٣)، ودعا إلى الفتك بهم، والقضاء عليهم: (٧٤)

الملك الأمجد الذي شهدت	له ملوك الزّمان بالفضل
أصبح في السامريّ معتقداً	ما اعتقد السامريّ في العجل
والسامريّون كالبرامك من	قبل، فأين الرّشيد للقتل؟!!

ونزع بعض الشعراء في تعريضهم بالحكام إلى تشويه صورة المهجو ونعته بكل قبيح منفر، من ذلك قول محمد بن سوار بن إسرائيل يصف أحد المتولين الجائرين، جاعلاً إياه شؤماً على الرعية، ومصوراً المفارقة الأخلاقية في سلوكه، وانعكاس الأحوال في عهده: (٧٥)

يا فاضح الدين والدنيا بسيرته      وقامع العدل والإحسان والجود  
قد ضاق ظاهر ما في الأرض منك فما      بباطن الأرض ميت غير محسود  
خفف عليك فإن الناس قد أيسوا      من خضرة العيش في أيامك السود

وإمعانا في الانتقاص من قدر الحكام، استعمل الشعراء صور الحيوانات والحشرات وقارنوا المهجوين بها، كما في قول البديع الدمشقي يشبه أحد الحكام بالبهيمة (٧٦):

حاكمكم بهيمة      ليست تساوي العفا  
وليس فيه مضغة      طيبة إلا القفا

ويعرض العلم الشاتاني بالوزير صالح بن العجمي ويصفه بأنه "تيس" ويستطرد إلى ذكر العماد الأصفهاني (٧٧):

وزارة التيس أبي فاسد      قد عمّ أهل الأرض منها الفساد  
عانَدَ علمي جهله مثلما      هدّ قوى الفضل بقصد العماد

وتعرض بعض الشعراء في تقديم للحكام إلى أخلاقهم وسلوكهم، فقد هجا ابن دنيير ابن يعلى وزير الملك الظاهر بحلب في عدة مناسبات، من ذلك قوله يصفه باللؤم والجهل وضعف العزيمة والحمق وسوء الأخلاق (٧٨):



ما إن سمعتُ ولا رأيتُ ولن أرى  
هو جاهل واهي العزيمة أحرق  
فلو أن رجليه بخفة رأسه  
لؤماً يماثل لؤم عبد الباقي  
صعب العريكة ضيق الأخلاق  
لغدا يفوت نواظر الأحداق

وينتهز ابن دنينير مناسبة حجّ المعتمد والي دمشق لينعته بالرياء، ويتهمه  
بأنه حجّ خوفاً من الملك المعظم عيسى لا خشية من الله. يقول: (٧٩)

حجبت يا شرّ خلق الله كلهم  
وكان حجك يا من لا خلاق له  
لما تعرّيت من مال ومن جاه  
خوف المعظم لا خوفاً من الله

وقد أفحش عضرار الحلبيّ في هجاء أحد رؤساء حلب، فرماه في شرفه  
ورجولته، وذلك إذ يقول (٨٠):

شكت ابن صقر عرسه وتظلمت  
فأجابها بتدلل وتخضّع  
بي مثل ما بك يا حمامة فاسألي  
عدم الجماع وقلة الإنفاق  
والدمع منحدر من الأماق  
من حلّ قيدك أن يحلّ وثاقي

وكتب ابن الساعاتيّ إلى بعض الأكابر، وقد ولي ولاية، أبياتاً عنّفه فيها  
على تكبره على الناس، مبيناً له أنّ هذه الولاية لن تدوم وأنها "كأحلام نائم".  
يقول (٨١):

تنتيه علينا أن وليت ولاية  
وما المال ذا نفع وإن كان سالماً  
فما هي إلا مثل طيف مسلم  
رويداً فما شيء لديها بدائم  
إذا كان عرض المرء ليس بسالم  
وما عزّها إلا كأحلام نائم

وقد صاغ شعراء آخرون نقدهم للحكام بأسلوب هزليّ تتبدّى فيه روح السخرية بقوة، ولعلّ أشهر أولئك الشاعر ابن عنين الذي ثابر على هجاء الحكام في عصره، وأثر ألاّ يأوي إليهم، ولا يكفّ عن ذمّهم، حتى اقتحم بأهاجيه غضبهم، وإحن صدورهم. ومن يقرأ هذا الهجاء يشعر أنه يعبر عن تجربة إنسانية عميقة فيها قدر طاع من حدّة الإحساس وقوّة الشعور. فما هو ذا ينتقد الجهاز الإداريّ لمدينة دمشق، فيذمّ بدر الدين مودوداً شحنة المدينة، ويضمّ إليه طائفة كبيرة ممّن يعملون معه، ويثّمهم في أمانتهم وكفايتهم، ويرميهم في أخلاقهم وسلوكهم<sup>(٨٢)</sup>:

إلاّ المبارز إبراهيم نائبه	ما عند مودود من قلتّ مثالبه
قد أعجزتني فما تحصى معايبه	ومن سواه فكلب لا خلاق له
يدي على لومه ممّا أعاتبه	المستشار عفيف الدّين قد دميت
س الكلب مشرفه والعلق كاتبه	وابن النفاية والتّيس الشريف وجع
وان الأمير وجاييه وحاسبه	والأقف الكلب رأس الأمر صاحب دي
حبس العقيبة عن علق يداعبه	والأحمق الجاهل الكرديّ يسأل في

ويهجو ابن عنين أمير البيرة بدرّ الدّين حسناً، فيتهكّم به، ويصوّره تصويراً مضحكاً، وذلك إذ يقول<sup>(٨٣)</sup>:

ينطح في الأفق الفلك	لنا أمير قرئنه
ما غير دقّ بالحنك	عطاؤه وطعننه
في أيّما جيش سالك	فهّم الدّنابيّ أبدا
رّة صياد السمك	كأنّه في قلعة البيه

وعندما نُفي ابن عنين من دمشق، استنكر ذلك، وهتف في وجه مقدّمي الدولة قائلاً<sup>(٨٤)</sup>:

لو كنت أسودَ مثل الفيل هامته      عبِل الذّراعين في غرموله كَبَرُ  
كانت حوائج مثلي عندكم قضيت      لكنتني أبيض في أيدهِ قَصْرُ

وبعد أن أذن له الملك العادل بالعودة إلى دمشق، عاد إليها قوَى النَّفسِ،  
وهو ينشد<sup>(٨٥)</sup>:

هجوت الأكابر في جَلِّق      ورعت الوضيع بهجو الرّفيع  
وأخرجت منها ولكنني      رجعت على رغم أنف الجميع

وتناول الشعراء في سياق نقدهم لأجهزة الحكم والإدارة ظاهرة الكسب غير المشروع واختلاس أموال الدولة والثراء على حساب الشعب. فقد استهل ابن منير الطرابلسي قصيدته التي قالها في هجاء القاضي الأعزّ أبي الفتح محمد بن عبدالله التميمي، قاضي صور، بأبيات صورّ نفسه فيها يقف عند بائع خبز يستدين منه، وبينما هو كذلك، يمرّ موكب القاضي، فيتشبّث ابن منير به، فيأخذه القاضي معه إلى بيته، ثم يأخذ ابن منير في وصف هذا البيت وما فيه من بذخ ونعيم، وكأنّه يوجه الأنظار إلى هذا القاضي وأمثاله ممّن أثروا على حساب الشعب، وغرقوا في النعيم، بينما لا تجد العامّة (رغيف الخبز) إلاّ دَيْناً<sup>(٨٦)</sup>:

كنتُ يوماً في باب جيرون أتلو      آية الدّين عند بيّاع خبز  
فإذا وقع بغلة وغلام      يقرع النَّاس بين دفع ولهز  
وعليها فتى ضئيل المحيّا      مكثر من ملونات وطرز  
قلت: من ذا؟ فقيل: قاضٍ جليل      لقّبوه في بيته بالأعزّ  
وهو يأوي إلى ذكاء وفضل      قلت: يا نفس قد ظفرت بكنز  
فتدانيت ثمّ سلّمت فاستفـ      رس حتّى استبان جمعي وفرزي

\*\*\*\*\*

فدخلنا الدهليز فابتدر الإذُّ      نَ فأغرقت في دمقسٍ وخرُّ  
بين دست وسلة ودواة      ورقيق من تستريٍ وقرُّ  
ودعا بالطعام فاخترت من حلـ      وِ ومن حامض المذاق ومزُّ

ويمضي ابن منير في قصيدته على هذا النحو من وصف ما رآه في بيت  
هذا القاضي من مظاهر البذخ والترف. وحين يأسى فتیان الشاغوري لموجات  
الغلاء التي توالى على بلاد الشام، يلتفت إلى أولئك الذين احتجوا الأموال،  
وسكبوها في دورهم، بينما تعاني الرعية من الجوع والضنك. يقول<sup>(٨٧)</sup>:

هم أطلقوا طرّف الغلاء فجاءنا      عن طرّف رخص بالغلاء مقيدٍ  
ما بين جذب نحن فيه ورخصهم      إلا كغلو ساهم رام جيّد

وقال أبو شامة المقدسيّ قصيدة طويلة صور فيها فسادَ القائمين على  
أموال الوقف في دمشق لعصره، ووجد عليهم موجدة شديدة، لأنهم كانوا يتصرفون  
في هذه الأموال على غير هدى، وينفقونها حسب أهوائهم ورغباتهم، ويحرمون منها  
مستحقّيها من طلبية العلم، ومما قاله فيها<sup>(٨٨)</sup>:

اتخذ حرفة تعيش بها يا      طالب العلم، إنّ للعلم ذكرا  
لا تُهنه بالاتكال على الوقف      ف، فيمضي الزمان ذلاًّ وعسرا  
إنما تحصل الوقوف لشريـ      ر من العلوم مبرّرا  
أو لمن يلزم الأكابر لا يبـ      رح في خدمة ومدح وإطرا  
والضعيف المشغول بالعلم يلقى      من ولاية الوقوف هجرا وهجرا

وعمل سيف الدين السامريّ أرجوزة سماها السامرية، أولها<sup>(٨٩)</sup>:

يا سائق العيس إلى الشام وقاطع الوهاد والآكام

"حطّ فيها على الكتاب، وأغرى النَّاصر بمصادرتهم"، إلا أنّ هذه الأرجوزة لم تصل إلينا.

بيد أنّ ابن عنين كان أكثر الشعراء جرأة في الحديث عن بعض العمّال والمستخدمين الذين أطلقوا أيديهم في أموال الرعيّة ولا سيّما في دولة الملك المعظم عيسى، فعندما أمر هذا الملك بأن تسلسل أبواب الجامع الأمويّ بدمشق، التمس ابن عنين تعليلاً لذلك، ليطعن به في أمانة سدنة المسجد الذين نهبوا أمواله. يقول<sup>(٩٠)</sup>:

لَمَّا رَأَى الْجَامِعَ أَمْوَالَهُ      مَأْكُولَةً مَا بَيْنَ نَوَابِهِ  
جُنَّ فَمِنْ خَوْفٍ عَلَيْهِ غَدَا      مَسْلَسَلًا مِنْ كُلِّ أَبْوَابِهِ

ولمّا أمر الملك المعظم عيسى بنزح ماء خندق القلعة بدمشق، ونال الناس من ذلك جهد عظيم، انتهز ابن عنين ذلك ليلمز أحد القضاة ويطعن في أمانته، فاقترح على الملك المعظم أن يضع هذا القاضي يديه في الماء فينزحه، ولا يبقي منه شيئاً<sup>(٩١)</sup>:

أَرِحْ مِنْ نَزْحِ مَاءِ الْبَرَجِ يَوْمًا      فَقَدْ أَفْضَى إِلَى تَعَبٍ وَعِيٍّ  
مَرِ الْقَاضِي بَوْضَعِ يَدَيْهِ فِيهِ      وَقَدْ أَضْحَى كِرَاسِ الدَّوْلَعِيِّ

ويقترّب ابن عنين من الرّوح الشعبيّة اقترباً شديداً في ألفاظه وأساليبه، حين يهجو صاحب خزانة الملك المعظم عيسى، ويجرّده من كلّ فضيلة، ولا سيّما من الأمانة على أموال الخزانة<sup>(٩٢)</sup>:

يا مليك الدنيا الذي أعظم اللـ  
 أنا أشكو إليك جور رقيع  
 عدم العقل والمروءة والإحسـ  
 وحوى اللؤم والزقاعة والخسـ  
 زعموا أنه حفيظ على الما  
 به بتأييد عرّه سلطانه  
 لقبوه الصّفعان تاج الخزانة  
 ان والدين والحيا والأمانة  
 لة والجهل والخنا والخيانة  
 ل أمين؛ قلت: اسكتي يا فلانة

وكان كثير من القضاة في بلاد الشام زمن الحروب الصليبيّة عرضة لهجاء الشعراء ونقدهم، مع أنّ عدداً منهم كان مشهوداً له بالعدل والنزاهة، فقد انتقد ابن دنيّير القاضي حجة الدين الشهرزوريّ، وشهرّ به، ونعته بالجهل والظلم والفسق والفجور، وذلك في قوله<sup>(٩٣)</sup>:

قـاض غـدا في الـويل والثـبور  
 مـن قـبح ما يـأتي مـن الأـمور  
 فـي بـخله ولؤـمه المشـهور  
 والظـلم والجـور وقـول الرـزور  
 وجـهله المـركّب المـوفـور  
 مـعـترف بالـفسق والفـجـور

وتذكر المصادر أنّ القاضي شرف الدين بن الزكيّ كان "نزهاً.... عفيفاً"<sup>(٩٤)</sup>، إلاّ أنّه لم يسلم من لسان ابن عنين الذي كتب إلى الملك المعظم عيسى أبياتاً يتّهم فيها هذا القاضي بالميل إلى النساء، ويدعوه إلى اتخاذ الإجراءات بحقه<sup>(٩٥)</sup>:

أقولها لو بلغت ما عسى  
 قاضيك إن لم تقصه فاخصه  
 فالطبل لا يضرب تحت الكسى  
 أولاً فلا يحكم بين النسا

وعندما لا يجد ابن عنين ما يطعن به في نزاهة القاضي ابن أبي عسرون  
يستحيل نقده له ضرباً من العَبَثُ، كما يقول هو نفسه<sup>(٩٦)</sup>:

وما هجوت ابنَ عسرون أروم به      فضلا، ولا نلت من فخر ومن شرفِ  
لكنْ أجرب فيه خاطري عبثاً      كما تجرّب بيض الهندِ في الجيفِ

وقد توالى على منصب قاضي القضاة في دمشق في النصف الثاني من  
القرن السابع الهجري عدد من القضاة الذين لم يتحرّروا العدل في أحكامهم، ومن  
هؤلاء أحمد بن هبة الله الملقّب بالصدر بن سنيّ الدولة، الذي "كان مراعيّاً لأرباب  
الجاهات كثيراً"<sup>(٩٧)</sup>، فاستشهد النجيب بن الشقيشقة "لأجل جاهه كان النجيب متّصلاً  
به، وميّزه بأن جعله عاقداً للأنكحة بباب جامع دمشق، فعجب الناس منه، وأنكروا  
ما فعله"<sup>(٩٨)</sup>، لأن النجيب "كان مشهوراً بالكذب ورقة الدين وغير ذلك"<sup>(٩٩)</sup>. وقد قال  
أحد الشعراء الشاميين ثلاثة أبيات أنكر فيها بشدة على القاضي صدر الدين أن  
يولّي رجلاً موصوفاً بانحلال العقيدة والجهل بأحكام الشرع عقد الأنكحة للمسلمين  
والأبيات هي<sup>(١٠٠)</sup>:

جلس الشقيشقة الشقي ليشهدا      بأبيكما ماذا عدا ممّا بدا؟!  
هل زلزل الزلزال أم قد أخرج الد      جال أم عدم الرجال ذوو الهدى؟!  
عجباً لمحلول العقيدة جاهل      بالشرع قد أذنوا له أن يعقدا

وعندما عدل القاضي الصّدْرُ بن سنيّ الدولة جمال الدين بن اليزديّ،  
وخلع عليه خلعاً بطيلسان، وأحضره مجلسه مع العدول، وأشهد عليه، قال الشاعر  
سيف الدين السامريّ قصيدة زفّ فيها إلى الناس، بأسلوب تهكميّ، نبأ تعديل ابن  
اليزديّ وجلوسه للنظر في أمورهم، عادداً ذلك فرصة سانحة للمجاهرة بالمعاصي

والانغماس في اللهو والمجون، لأنّ ابن اليزديّ نفسه يفعل ذلك. يقول (١٠١):

طاب شرب المدام في رمضان والزّنا واللواط في حرم اللـ منذ صار اليزديّ في سكك الشا وإذا صارت العدالة في الفسـ فجدير بأن أكون نبيّاً يا عدول الشام قد سمح القا قامروا واشربوا وقودوا ولوطوا وارفعوا عنكم التسرّ بالفسـ	واصطفاق العيدان عند الأذان هـ وترك الصلاة بالقرآن م يطوف الحانات بالطيلسان فاق واللائطين بالمردان ويكون الصديق لي التلمساني ضي لأصحابه بنيل الأمان وافسقوا والحدوا إذن بأمان ق فلا حاجة إلى كتمان
---	--

وقد كانت هذه الطريقة في النقد بالغة التأثير، فعندما بلغت الأبيات القاضي صدر الدين "عزّ عليه، وأعرض عن اليزديّ، ومنعه من الشهادة" (١٠٢).

وذكر أبو شامة المقدسيّ في كتابه (الذيل على الرّوضتين) أنّه تولّى القضاء في زمانه ثلاثة مشهورون بالفسق والظلم، هم النّجم بن الصدر سنيّ الدولة، وكان "حاكماً جائراً فاجراً ظالماً متعدّياً" (١٠٣)، وابن الجمال المصريّ الذي لم تكن طريقته مستقيمة" (١٠٤)، والرّبيع الجيليّ الذي "فعل بالنّاس الأفاعيل" (١٠٥). وقد قال أبو شامة ثلاثة أبيات حصر فيها هؤلاء القضاة ونوابهم، مصوراً فظاظتهم، واستشراء فسادهم، وابتلاء النّاس بهم (١٠٦):

دمشق في عصرنا مع فضلها بليت بأعجمين ومصريّ وصائغهم هم ضعف ستّة والنّواب كلّهم	من القضاة بجّهال وأوقاح والأربليّ وخيّاط وفلاح ضعفان، أحزانهم أضعاف أفرح
---	--

ولمّا كثر تعدّي النجم بن الصدر سنيّ الدولة عزل، وأرسل إلى مصر. وقد



صوّر أبو شامة المقدسيّ ردود الفعل الشعبيّة بعد أن سمع الناس بعزل القاضي ومغادرته دمشق، فقال: "ثمّ سافر الحاكم المعزول إلى مصر تحت الحوطة... والدّعاء عليه كثير، والتظلمّ منه شائع، والدعاوى عليه كثيرة"<sup>(١٠٧)</sup>. وقد قال العماد داوود بن الحمويّ في ذلك قصيدة تمثّل فيها مشاعر الدمشقيين الغاضبة إزاء هذا القاضي المخلوع الذي فتق الشّرع، واحتال على الخلق، وبدّد الأموال، مصوّراً شماتة النّاس به، وكرهيتهم له، وتفنّنهم في ذمه، ومما ورد فيها<sup>(١٠٨)</sup>:

نجم أتاه ضياء الشمس فاحترقا	وراح في لجج الإدبار قد عرقا
ناحت عليه الليالي وهي شامته	وعرّفته صروف الدّهر ما اختلقا
وحدّثته الأماني وهي كاذبة	بأنّه لا يرى بعد النّعيم شقا
وجادَ بالمال كي تبقى رئاسته	وفتق الشّرع والتّقوى وما رتقا

\*\*\*\*\*

وألقيت في قلوب الناس بغضته	لكنّهم قد غدوا في ذمّه فرقا
وفرقة بقبيح الظلم تذكّره	وفرقة حلفت بالله قد فسقا
وفرقة سلّبت ثوب عصمته	بأنّه من رباط الدّين قد مرّقا

وزاد أبو شامة من قوله:

وفرقة وصفّته بالخلاعة مع	خبثٍ وكبرٍ وكلّ منهم صدقا
--------------------------	---------------------------

وفي سنة ٦٦٣ هـ اجتمع على ولاية القضاء بدمشق، وفي زمن واحد، أربعة قضاة، وجعل كلّ واحد منهم قاضي القضاة لأحد المذاهب الأربعة، وقد استهجن أبو شامة المقدسيّ ذلك قائلاً: "وهذا شيء ما أظنّه جرى في زمان سابق"<sup>(١٠٩)</sup>.

وكان لقب ثلاثة من القضاة شمس الدين، فاتخذ الشعراء من ذلك مناسبة للتندر  
والسخرية، كما في قول أحد الظرفاء<sup>(١١٠)</sup>:

أهل دمشق استرابوا      من كثرة الحكم  
وهم جميع شمس      وحالهم في ظلام

وقول آخر:

أظلم الشام وقد      ولي الحكم شمس  
ليس فيهم من بيت الحك      م علماً أو يسوس

وقد اتسعت دائرة النقد الاجتماعي في الشعر الشامي زمن الحروب  
الصليبية، فشملت الفقهاء والمتصوفة والوعاظ وأئمة المساجد. فقد استرعى انتباه  
ابن عنين ما كان يدور في ردهات المسجد الأموي بدمشق من جدل بين بعض  
الفقهاء، وما صاحب ذلك من انفعالات وارتفاع أصوات، فصور ذلك تصويراً  
ساخراً، وذلك إذ يقول<sup>(١١١)</sup>:

البغل والجاموس في جديهما      قد أصبعا عجباً لكل مناظر  
برزوا عشية يومنا لتجادل      هذا بقرنيه وذا بالحافر  
ما أتقنا غير الصياح كأتما      لقنا جدال المرتضى بن عساكر  
لفظ طويل تحت معنى قاصر      كالعقل في عبداللطيف الناظر  
اثان ما لهما وحقك ثالث      إلا رقاعة مدلويه الشاعر

وقد سخر شهاب الدين بن غانم، وهو متصوف، من الفقهاء الذين  
يعتكفون في المساجد في رمضان، فيشبههم بالشياطين التي تغل في ذلك  
الشهر<sup>(١١٢)</sup>:

ما اعتكاف الفقيه أخذاً بأجر      بل لحكم قضى به رمضان  
هو شهر تغلّ فيه الشياطين      ين، ولا شكّ أنّه شيطان

أما الشّاعر حوبان القوّاس فقد سخر من حالات الوجد التي يزعم  
المتصوّفة أنّهم يمرّون بها، فقال على طريقتهم متهمًا بهم<sup>(١١٣)</sup>:

متّ في عشقي، ومعشوقي أنا      ففؤادي من فراقني في عنا  
غبت عنّي فمتى أجمعني      أنا من وجدي منّي في فنا  
أيّها السامع تدري ما الذي      قلت والله ولا أدري أنا

وكان في ظاهر دمشق خان قد جمع أنواع أسباب الملامد، ويجري فيه من  
الفسق والفجور ما لا يحدّ ولا يوصف، فهدمه الملك الأشرف، وعمره جامعاً، وسماه  
الناس "جامع التّوبة". وقد ولّى الأشرف الجمال السبتيّ إمامة الجامع، وكان يلعب  
في صباه "بشيء من الملاهي، وهي التي تسمّى الجغانة"، فلما توفي تولى  
موضعه العماد الواسطيّ "وكان يتهم باستعمال الشراب"<sup>(١١٤)</sup>، وكان صاحب دمشق  
آنذاك الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، فكتب إليه ابن الزويتينة الشاعر أبياتاً،  
على لسان المسجد، يذمّ فيها أخلاق الإمام، ويشرح له ما أصابه من ضرر، حاتماً،  
بأسلوب ساخر، على رده إلى حالته الأولى<sup>(١١٥)</sup>:

يا مليكاً أوضح الحـ      قـ لـدينا وأبانـه  
جامع التوبة قد قدنـ      بي منك أمانـه  
قال: قُلْ للملك الصا      لـح أعلى الله شأنه  
يا عماد الدين يا من      حمـد الناس زمانـه  
كم إلى كم أنا في ضـ      رـ وبـؤس وإهانـه

يعشق الخمر ديانهُ  
لـ يغتني بجغانهُ  
لـ، وما نبرح حانهُ  
ل، واسـتبق ضـمانهُ

لـي خطيبٌ واسـطي  
والذي قد كان من قبـ  
فكما نحن فما زلنـ  
ردنـي للـمطِ الأو

## الدراسة الفنيّة

اتّخذ كثير من شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية شكل مقطوعات قصيرة تعبّر عن فكرة واحدة بإحكام، بحيث يشعر القارئ عند الانتهاء منها بالاكتماء. وهذه المقطوعات ليست أجزاء من قصائد ضاع أكثرها، أو اختيارات من قصائد طويلة، وإنما هي مقطوعات في صورتها الأصليّة التي قالها الشعراء.

وتتخذ هذه المقطوعات صورتين رئيسيتين، الأولى أن تكون المقطوعة في بيتين لا يمكن الفصل بينهما، ويعبران عن معنى تامّ لا يقبل التطوير، كما في قول ابن المسجّف العسقلاني يسجل بعض الظواهر التي أنكرها الناس في عصره في دمشق<sup>(١١٦)</sup>:

ثلاثة أشياء تفلن بجأق      على كلّ قلب بالدليل المحقّق  
ترهّد قاضينا الخويّ وطرحه الشّه      أب وإسلام الحكيم الموقّق

والصّورة الثانية أن تكون المقطوعة في ثلاثة أبيات أو أكثر تتطوّر حتّى تبلغ نهاية مرسومة لا تتجاوزها لتمام المعنى بها، كما في الأبيات التالية التي كتبها شهاب الدين بن غانم إلى جمال الدين يشكو له رجلاً يدعى السيف بن المغيزل<sup>(١١٧)</sup>:

مولايّ قاضي القضاة يا مَنْ      له على العبد ألف منّة  
إليك أشكو قرين سوءٍ      بليت منه بألف محنة  
شهرته بيننا اعتداء      أغمده فالسيف سيف فتنة

وقد لا يأتي السّياق مكتملاً في المقطوعة، وإنّما يترك الشّاعر للقارئ

إتمامه، كما في قول ابن السّاعاتي في هجاء ابن سناء الملك<sup>(١١٨)</sup>:

أتعبتُ بي غائباً يا سعيد      أما لو حضرت لأدّبت جَنك  
ولست أقول هجاء يشين      يكفيك علمك يا مجد أنك....

وقول ابن المهنا في الأبيات التالية التي أنفذها إلى قاضي حلب يشكو فيها نائبه وكاتبه<sup>(١١٩)</sup>:

لا عجب أن خرب الشام أو      أقوت مغانيه ولا غزو  
قد أصبح المجد به حاكماً      وأصبح المنشى له صنو  
مولاي، محيي الدين، غيرهما      عنا، فتحوى شكرنا أو....

وقد تكتفي المقطوعة بالإيماء إلى المعنى دون ذكره، فتترك في نفس القارئ أثراً مسترسلاً، كما في قول ابن عنين يخاطب الملك المعظم عيسى وقد أرق الناس بنزح ماء خندق القلعة بدمشق<sup>(١٢٠)</sup>:

أرح من نزح ماء البئر يوما      فقد أفضى إلى تعب وعي  
مُر القاضي بوضع يديه فيه      وقد أضحى كراسِ الدّولعي

وتمتاز المقطوعات الهجائية بالإيجاز والتكثيف ممّا يمنحها حدّة لاذعة، كما في قول سيف الدين السامريّ يهجو أهل دمشق<sup>(١٢١)</sup>:

قَبَحَ اللّٰه كلَّ من بدمشق      من أصيحابنا سوى ابن سعيد  
فهو على شحّه وما يتعاطا      ه من اللّوْم أصلح الموجود

وتستعين بعض المقطوعات بالسخرية القائمة على مفاجأة القارئ بمعنى

ظريف أو صورة طريفة، كما في قول ابن عنين يتهكم بشرف الدين يعقوب الذي كان يُسمع الحديث بجامع دمشق<sup>(١٢٢)</sup>:

رأيت النبي عليه السلام  
فقلت: أيعقوب يروي الحديث  
فقلت: نعم، قال: ما قلتُه  
فقلت: نعم، قال: ما قلتُه

وقد تتخذ المقطوعة شكل دعابة يحرص الشاعر على إنهاؤها بطريقة فكاهية ترسم على شفطي القارئ إذا ما انتهى من قراءتها، ابتسامة خفيفة، كما في قول شهاب الدين التلعفري في صديق له يدعى سليمان، وقد رمته بغلته وداسته<sup>(١٢٣)</sup>:

سمعت لابن سليمان وبغلته  
قالوا: رمته وداست بالنعال على  
لأنها فعلت في حق والدها  
أضحوكة، خلتها إحدى قصائده  
قفاه، قلت: هذا من عوائده  
ما كان يفعل في حق والده

وتبدو بعض المفاكهات نكتة بسيطة ساذجة، ولكنها هادفة، كما في قول ابن المسجف في رجل يلقب بدر الدين، ويستطرد إلى نفسه<sup>(١٢٤)</sup>:

قالوا: تلقب بدر الدين مفتخرا  
فقلت: لا تعجبوا منه، فذا لقب  
نجل الجنوبي من قد زين الأمانة  
وقف على كل نحس، والدليل أنا

ولابن عنين مقطوعات كثيرة تشتمل على الفكاهة الحلوة، والنكتة البارعة، وقد أدرك الأقدمون ذلك، فأشاروا إلى أنّ ابن عنين كان يقصد من بعض هجائه "الدعابة والإحماض، لا الغيبة وتلب الأعراس"<sup>(١٢٥)</sup>، كما في الأبيات التالية التي أضفت عليها التورية لونا هزليا خفيفا، وقد قالها في الشريف الكحال الذي أحب غلاما ينيب بـ "الجمل"<sup>(١٢٦)</sup>:

فَدَيْتَكَ قَلَّ لِلشَّرِيفِ الشَّهَابِ      وَإِنْ شَاطَ غِيظاً فَلَا تَحْتَفِلْ  
تَوَالِي الحَنَابِلَةِ القَائِلِينَ      بَأَنَّ يَزِيداً إِمَامَ عَدْلٍ  
وَتَزَعَمُ أَنَّكَ مِنْ عَتَرِهِ الوَصْلِ      سِي، وَأَنْتَ تَحِبُّ الجَمْلَ!!

وقد تكون المقطوعة لدى ابن عنين في صورة حكاية بسيطة تتسم بالحركة الصاعدة التي تصل إلى نهاية محددة تقف عندها، ويتم المعنى بها، كما في الأبيات الآتية التي قالها في بدر الدين مودود شحنة دمشق<sup>(١٢٧)</sup>:

جاء الشتاء وليس عندي جبة      فطفقت أطلب دار بدر الدّين  
فتصفحت لَمَّا قراها جبة      فبدا يواصل زفرة بأنين  
وشكا نياط فؤاده وحرارة      في قلبه تُربي على سجين  
وغدت فرائصه تهزّ كأنها      سعف عرته الرّيح في تشرين  
ينسى فيسكن ما به وتعوده الذك      رى، فيصرع صرعة المجنون  
فشكرت ربّي لو قراها جبة      لفتلته عمداً بلا سكين  
وخرجت أمشي القهقري متستراً      بقرور حاجبه الزكيّ ابن القيني

أمّا الهجاء الذي كان في قصائد طويلة فهو قليل في الشعر الشاميّ زمن الحروب الصليبيّة، ومن أمثلة ذلك قصيدة لأبي شامة قالها في هجاء القائمين على أموال الوقف في دمشق، وقد مرّت بنا بعض أبياتها، وقصيدة لابن دنينير قالها في هجاء القاضي حجة الدين بن الشهرزوريّ، وقد استشهد ببعض أبياتها في الحديث عن هجاء القضاة، وقصيدة ابن عنين التي وسمها بـ "مقراض الأعراض"، وهجا بها عدداً من وجوه دمشق. غير أنّ ابن منير قد فاق هؤلاء في قدرته على إطالة قصائده الهجائيّة، ولعلّ هذا يرتبط بموهبة الشاعر، بالإضافة إلى الهدف الذي كان يرمي إليه من هذا الهجاء المطول. من ذلك قصيدته التي قالها في هجاء القاضي



الأعزّ، ومطلعها(١٢٨):

يا وزيرَ الشّامِ دعوةَ مظلّو      مِ رجا من عُلاك كَشَفِ الظُّلامِ

وقد طال نفس الشاعر في هذه القصيدة، إذ بلغ عدد أبياتها مئة وأربعة وعشرين بيتاً. ولعلّ ميل الشّاعر إلى الأسلوب الوصفيّ هو الذي أتاح له هذا التطويل، كما أتاح له أن يحافظ على وحدة القصيدة ويدفع عنها التشتت، فالقصيدة على طولها، فيها قدر كبير من الحيويّة المستمدة من تدرّج الشّاعر في الأفكار والمعاني، والبراعة في التصوير وإيثار اللغة البسيطة الواضحة. فبعد أن استهلّ ابن منير القصيدة بأبيات تظلم فيها إلى وزير الشام آنذاك من القاضي الأعزّ، يأخذ في وصف عمّة القاضي التي كانت مزينة ببعض الرّسوم. بيد أن ابن منير لم يقف عند حدود ما كان مرسومًا فعلاً، وإثماً راح يستدعي أصنافاً شتى من هذه الصور، ويخيّل للقارئ أنّها مرسومة على العمّة. وقد استغرق ذلك حوالي ستين بيتاً من القصيدة، تفنّن فيها ابن منير تفنناً يدلّ على براعته في استغلال ثقافته المتنوعة في تشكيل معاني شعره وصوره. أجتزئ من ذلك قوله:

كعُشْرِ عَشْرِ القلامِ	عمّة تملأ الفضاء على وجه ضئيل
وجعلنا بيت الدنا أعلامه	لو تخذنا البحر المحيط مداداً
من شوابيرها يد الرقّامه	لم تمثّل معشار ما صوّرت بيده
رُتّع بين أئله وثمامه	من وحوش رواتع وظباء
هو هواها وقحبة مستهامه	وصنوف العشاق من عاهر تشك
س وفوز والقسّ مع سلامه	مثل قيس عشيق لبنى وعبّاه
بِ ونجد ومكة وتهامه	وملوك البلاد في الشرق والغرب
سقّ وأورى بصدقهِ أعلامه	والنبيّون كلّ من أظهر الح
ض دار الدنيا بدار المقامه	فعلينا أبو الخلائق قد عوّ

وعليها قابيل يـدـفن هاـبـيـم  
وعليها نوح وقد صنع الفلـ  
وعليها موسى يناجي من الطـو  
وعليها يعقوب يشكو إلى الله  
لـ وقد بـاءَ بعـده بالندامة  
كـ وأبـدى في بـنـيها إحكامه  
رِ إله السّماءِ يبغـي كلامه  
بـنـيـه وبـنـه وعرامه

ويمضي ابن منير في قصيدته على هذا النحو، فيذكر إبراهيم الخليل وهو يكسر الأصنام، وشعبياً وقد أقعده المرض، ويوسف وقد جدّ في الهرب من امرأة العزيز... إلى غير ذلك من الصور المستوحاة من القصص القرآني والتاريخ الإسلامي وغير الإسلامي... ومع أنّ هذا التكرّر من الصور كان يصدر عن رغبة في السخرية من القاضي الأعز، فإنه كذلك يدل على رغبة ابن منير في استعراض ثقافته المتنوعة.

وبعد أن انتهى الشاعر من تصوير القاضي الأعزّ في هيئة لا تصلح أن تكون لقاض، يخلص إلى تصوير استخفاف الناس بهذا القاضي، وتملّقهم إياه بالمدح الكاذب، لعلمهم ينالون الحظوة عنده:

مكّن الله درّتي من أعالي  
كلّ فسّل إذا رآه تردي  
قائلاً يا عذير حاتم الطا  
يا مليح الشباب يا أنضر النّا  
كلّ هذا نصّب على الخرب البيـ  
وهو إذ ذاك لا يريد سوى تيـ  
يصطفي بعضهم ويبعد بعضا  
سَقَل يدعون فيه الإمامه  
خاضعاً راععاً ذليلاً أمامه  
ئـي فيما يولي وكعب بن مامه  
س، ويا أحسن البريّة قامه  
ت، ليفنوا خلقانّه وطعامه  
هـ عليهم وسطوة وعرامه  
لـيرى ذا إهانته وكرامه

وإذا كان ابن منير قد تناول في الأبيات السابقة صوراً من العلاقات

الظاهرة بين القاضي الأعزّ ومن يأتي إلى مجلسه، فإنّه تحدّث في الأبيات التالية عن طائفة من العلاقات الشاذّة الخفيّة بين هذا القاضي وبعض حاشيته، بله علاقتهم بأخته، مقدّماً في الهجاء، مستعملاً عبارات وصوراً فاحشة، يجلّ المقام عن ذكرها، وقد تدرّج الشاعر في هذا الهجاء تدرّجاً يشعر بالوصول إلى نهاية القصيدة، فمازج بينه وبين ذمّ الدهر الذي قدّم أمثال هؤلاء، وأخره على فضله، شاكياً من الحاجة وفقدان الصديق، محدّراً القاضي وأتباعه بأنّ الأيام دول:

يا شباع البطون لا بدّ من جو      ع يليك البطين منكم لجامه  
لا تغرّركم مهادنة الدهر      ر فما زال مُسْهراً من أنامه  
كلّ شيء إذا تناهى إلى حـ      دّ تمام فالنقص يتلو تمامه

وهكذا كانت قصيدة ابن منير الطرابلسي، كغيرها من القصائد الهجائيّة، تجمع بين الطول ووحدة الموضوع، فالقصيدة ذات موضوع واحد هو الهجاء، وهدف واحد هو السخرية من القاضي الأعزّ وبيان بطلان أحكامه، ويسري فيها شعور واحد هو التّقمة على هذا القاضي وأمثاله، لذا أنهى الشاعر قصيدته كما بدأها، ولم تخالف نهايتها بقيّة أجزائها، فاطّرد فيها النّسق، وتوالى المعنى، ليحقّق الغاية المرسومة لها.

وإذا انتقلنا إلى الحديث عن لغة الهجاء وأساليبه، فإنه يلاحظ أنّ الشعراء، حتّى يكفلوا لأهائجهم سرعة التأثير والذّيوع بين النّاس، نظموها في لغة سهلة بسيطة واضحة، تقترب من اللغة المحكيّة اقترباً شديداً، من ذلك قول ابن الساعاتي يهجو رجلاً يدعى صالحاً، مستعملاً الصيغ النثرية في بناء بيتيه<sup>(١٢٩)</sup>:

أسائلي عن صالح إنّ صالحاً      وإن نال حظاً من علّيّ وتقدّم  
له إفك مدّاح، وأبنة كاتب      وكديّة صوفيّ، وعقل معلّم

ويقترب العرقلة الكلبِي في أهاجيه من اللغة المحكيّة اقتراباً شديداً، حتّى  
لتخلو - أحياناً- من الفنّ، كما في قوله يهجو وحيشاً الأسيديّ (١٣٠):

لا بآرك اللّآه في وحيشِ      فأئنه مكدّر للعيشِ  
كم قال، لا قلقل غير نابهِ      أبيات شعر كبيت الخيشِ

وتكثر الألفاظ العاميّة في هجاء ابن عنين، مثل "العواني، والعلق، ودقّ  
حنك، وما قصّر (بمعنى أصاب وأحسن)، والصفعان، والتجعمس" (١٣١). كما  
استعمل بعض التعابير التي تستعملها العامّة في دمشق مثل "اسكتي يا فلانه" في  
قوله (١٣٢):

زعموا أنّه حفيظٌ على الما      ل أمين، قلت: "اسكتي يا فلانه.."

ولا تكاد تخرج عبارة "يا ابن الدجاجة" عن الشتائم التي تتردّد على السنة  
العامّة، وذلك في قوله (١٣٣):

يا ابن الدجاجة كلّ الناس كان لها      ديكا، فأنت ابن من حتّى أناديكاً!؟

ويردّد ابن المسجّف العسقلانيّ في هجائه بعض الشتائم البذيئة التي تلقىها  
العامّة في عصره، كما في الشطر الثاني من البيت الأخير (١٣٤):

قالوا: علام رفضت الشعر مطّرحا      فقلت: من قلّة الإنصاف في زمني  
لا المدح يورثني مالاً أسرّ به      ولا الهجاء إلى سؤلي يقربني  
حتى يقال أديب شاعر فطن      جر أمّ كلّ أديب شاعر فطن

وكما في عبارة "لا يساؤون نعلًا" في قوله يهجو جماعة في دمشق (١٣٥):

خمس تيجان لا يساوون نعلًا      رثٌ في قيمة ولا مقدار  
الشحيرير والأعيور والقصا      ر وابن المصري وابن الحوار

ولا يخفى على القارئ الخطأ الذي وقع فيه الشاعر، إذ ذُكر العدد مع  
المعدود المذكّر في البيت الأوّل.

ومع أنّ لغة الهجاء تميل بوجه عامّ إلى البساطة والوضوح، والاستكثار  
من التعبيرات الشعبيّة، فإنّ بعض الشعراء استغلوا معارفهم وثقافتهم في التعبير عن  
معانيهم، وتصوير مهجويّهم. فقد استوحى الشعراء بعض آيات القرآن الكريم،  
ووجّهوها على نحو يخدم مقاصدهم الهجائيّة، كما في قول كمال الدين بن الأعمى  
يذمّ أحد الحمّامات، ويتذمّر من القائم عليه<sup>(١٣٦)</sup>:

كلّما قلت: قد أطلت عذابي      قال لي: اخسأ فيه ولا تتكلّم  
قلت لَمَّا رأيتَه يتلظّي      ربّنا اصرف عَنَّا عذاب جهنّم

ويفيد ابن عنين من القصص القرآنيّ حين ينتقد الأوضاع في مدينة دمشق  
لمّا فتحها الملك الكامل محمّد بعد الملك المعظم عيسى، وأعطاه الملك الأشرف  
موسى، وذلك إذ يقول<sup>(١٣٧)</sup>:

وكنا نرجي بعد عيسى محمّدا      لينقذنا من لاعج الضرّ والبلوى  
فأوقعنا في تيه موسى فكنا      حيارى، ولا منّ لدينا ولا سلوى

ويتصرّف شهاب الدين بن غانم بالحديث النبويّ الشريف الذي يتحدّث عن  
فضائل شهر رمضان حين يهجو أحد المتصوّفة في قوله<sup>(١٣٨)</sup>:

ما اعتكاف الفقيه أخذاً بأجرٍ      بل لحكم قضى به رمضان

هو شهر تغلّ فيه الشياطين، ولا شكّ أنّه شيطان

وضمّن الشعراء أهاجيتهم بعض الأبيات التي قالها شعراء سابقون، كما في أبيات العرقلة الكلبيّ التي هجا بها أبا الحكم الأندلسيّ، حيث ضمّن مقطوعته بيتاً للمتنبّي، ووضعه في موضعه المناسب من المقطوعة، وقد سبق أن اسْتُشْهِد بها في الحديث عن التهاجي بين الشعراء.

ويستعير ابن عنين بيتين لجميل بن معمر العذريّ، ويجعلهما على لسان المهجّو كمال الدين الشهرزوريّ إمعاناً في السخرية منه، وذلك في قوله<sup>(١٣٩)</sup>:

دخلت على ابن الشهرزوريّ ليلة  
فعاينته ولهان يرطل فيشّة  
"وماذا عسى الواشون أن يتحدّثوا  
نعم صدق الواشون أنت حبيبة  
وقد أغلقت دون الوزير المغالِق  
وينشدها والخذّ بالدمع غارق  
سوى أن يقولوا إنني لك عاشق  
إليّ، وإن لم تصف منك خلائق"

ويتكئ ابن منير الطرابلسي على ثقافته بالعربيّة: نحواً و صرفاً وإملاء وعروضاً حين يهجو القاضي الأعزّ في قصيدته الزائنيّة، وممّا ورد فيها قوله يتحاور مع هذا القاضي، ويفحش في ذمّه وتلبه<sup>(١٤٠)</sup>:

صاح، يا نصف سيبويه لقد أح  
أنا خفض، وأنت رفع، وذا  
قد صحبت النّحاة قبلك واستو  
وأراهم قد أدخلوا ألف الوصل  
قلت: هذاك للضّرورة، فاستنّضح  
فاحسبنا ضرورة وأتبع القو  
رزت علم الإعراب في غير حرز  
(....) نصب، فلم تخفّ همزي  
عبت ما كان من معميّ ولغز  
علي (... ) وأنت كالمشمنز  
ك تيهاً، وقال كالمستهزي  
م، فقد بان فيك معنى التتري

وقد استعمل الشعراء الشاميون التصوير البياني وغير البياني في التعبير عن معانيهم وأفكارهم، وتهدف هذه الصورة بصورة عامة إلى التشويه، لذلك كثرت الصور المنقّرة والقبيحة، كما في قول نصر الهيتي يهجو قوماً لم يجزلوا له العطاء، ويصف رقاعهم التي تضمّنت مرسوم ذلك، مستعيراً لها طائفة من الصور التي ينفر منها الذوق السوي<sup>(١٤١)</sup>:

رقاعهم تملأ الدنيا بما رحبت	ملاً من المين والبهتان والزور
تطوى وتتشّر والأدناس تشملها	في كفّ كلّ سخين العين معرور
كأنّها، وعطاياهم مسطرة	فيها، لفائف ميت غير منشور
أو ما يقلّعه البيطار من خرق	عن كلّ أعجف غثّ اللحم معقور
فما لها مشبه في كلّ مخزية	إلاّ مناديل ربّات المواخير
لا تطرحها إذا جاءت فإنّ لها	نفعاً، ولكن لترقيع الطنابير

وواضح أنّ الصور في الأبيات السابقة صور جزئية تحقق الازدراء بالمهجو، وقد استرشد الشاعر هذه الصور من مصادر تحقّق له هذا الهدف، فصور رقاع هؤلاء القوم تمتلئ كذباً وبهتاناً وزوراً، وجعلها ملطّخة بالأدناس والأوساخ، وشبّهها بلفائف ميت، وبالخرق التي يعالج بها البيطار حيواناته المريضة، وبمناديل ربّات المواخير..

وقد تعدّدت المصادر التي استرشد الشعراء صورهم منها، فقد استوحى فتيان الشاغوري القصص القرآني في الأبيات التي انتقد فيها الملك الأمجد بهرام شاه، وأخذ عليه استيزاره مهذب الدين السامري، وقد سبق الاستشهاد بها. واستوحى ابن عنين قوله تعالى "ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين"<sup>(١٤٢)</sup> في البيتين الآتين اللذين هجا بهما الرشيد النابلسي<sup>(١٤٣)</sup>:

شكا شعري إليّ وقال تهجو      بمثلي عرض ذا الكلب اللئيم

فقلت له: تسلّ فربّ نجم هوى في إثر شيطان رجيم

واستمدّ الشعراء بعض صورهم من أحداث التاريخ الإسلاميّ، فقد التفت العرقله الكلبيّ، مثلاً إلى الأحداث التي جرت بين عليّ ومعاوية، وذلك حين تبرّم من البوّاب الذي منعه من الدخول على أقباء الملك الصالح بن رزيك<sup>(١٤٤)</sup>:

على بابكم يا آل رزيك شاعر قنوع كفاه منكم الود والبشر  
وقد رده البواب جهلاً بوجهه "كما ردها يوماً بسوءته عمرو"  
وحتى حسين، وهو سيّد مذهبي زوى وجهه عني كأنتي الشمر

واستعار الشعراء بعض صورهم من التاريخ الأدبيّ، كما في قول ابن الساعاتيّ يصوّر حبّ أحد الأمراء للمدح والثناء، وأسفه على ما يذهب من ماله أو طعامه إذا زاره أحد، فيقرنه - على سبيل التهكم والسخرية - بعروة بن حزام ومجنون ليلي<sup>(١٤٥)</sup>:

مظهر بالمديح وإن كان مجاً نأ تباريح عروة بن حزام  
وهو يبكي بكاء مجنون ليلي ساعة الإذن أو غداة الطعام

وانتقاصاً من أقدار المهجّوين أكثر الشعراء من صور الحيوانات والحشرات، إذ شبّهوهم بالبهيمة والتيس والكلب والعجل والذباب... من ذلك قول ابن الساعاتيّ يُزري بأحد الحكّام ويفضّل عليه القرد في الهيئة والتكوين<sup>(١٤٦)</sup>:

لو كنت في زمن تقادم عهده لذكرت في طه وفي ياسين  
وتظنّ أنّك ذو جمال بارع والقرد أحسن منك في التكوين

ويشبهه ابن الساعاتيّ أحد الثقلاء بالعجل في الجهل وقلة العقل، والذباب



في التظّل، والنّمل في نقل الحديث. يقول (١٤٧):

تَجَاوَزُ دَنِيَّاتِ الْعُجَيْلِ وَجَهْلِهِ      فَمَا يَهْتَدِي عَجَلُ يَكُونُ بِلَا عَقْلِ  
أَحْطَ عَلَى مَأْكُولِهِ مِنْ ذِبَابَةٍ      وَأَنْقَلَ فِيهِمْ لِلْحَدِيثِ مِنَ النَّمْلِ

وتكثر الصور المستمدة من الطبيعة في شعر الهجاء، فعندما هجا ابن المسجّف العسقلاني جماعة من أصحابه شبّههم بالسّرّاب في قلّة النّفْع، وانعدام الفائدة. يقول (١٤٨):

هَمُ فِي الرَّخَاءِ إِذَا ظَفَرَتْ بِنِعْمَةٍ      آَلٌ، وَهَمُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ آَلٌ

ويقرن ابن منير الطرابلسي طباع أهل دمشق بجالهم في الغلظة والقسوة. يقول (١٤٩):

وَطَبَاعُهُمْ كَجِبَالِهِمْ      جُبُلَاتٌ وَقَدَّتْ مِنْ حَجَرٍ

ويشبهه كمال الدين بن الأعمى صحن حلاوة أهداه إليه أصحابه بأرض السماوة في اليبس والصلابة. يقول (١٥٠):

إِنْ فِي صَحْنِكَ الْمَسْمَى حَلَاوُهُ      رَقَّةٌ تَوْرَثُ الْقُلُوبَ قَسَاوُهُ  
كَمْ حَفَرْنَا فَلَمْ نَجِدْ غَيْرَ أَرْضِ الصَّحْرِ      مِنْ بَيْسَاءٍ كَمَثَلِ أَرْضِ السَّمَاوَةِ

واستغلّ الشعراء العيوب الخلقية لمهجوئهم، واستخرجوا منها صوراً طريفة على شاكلة ابن دنينير في القاضي حجة الدين بن الشهرزوري (١٥١):

وَكُنَّا عَمَلْنَا لِلْمَظْفَرِ دَعْوَةَ      لِيَحْضُرَ فِيهَا عِنْدَنَا يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ  
فَجَاءَ، وَلَكُنِّي رَأَيْتُ عَجِيْبَةً      أَتَى أَنْفَهُ مِنْ قَبْلِ ذَاكَ بِيَوْمَيْنِ

وقد تميّز ابن عنين بطريقة في التصوير لم توجد عند غيره من الشعراء، إذ كان يشبّه بعض مهجويه ببعض، ويقارن بينهم مقارنة هزليّة، كما في قوله يهجو الخطيب الدولعيّ، ويعارض بينه وبين أحد المفسّرين<sup>(١٥٢)</sup>:

طوّلت يا دولعيّ فقصر	وأنت في غير ذا مفسّر
خطابة كلّها خطوب	وبعضها للورى منقّر
تطلّ تهذي ولسنت تدري	كأنك المغربيّ المفسّر

والصّورة في شعر الهجاء تتنوّع بين صور جزئيّة تقوم على تطلّب التشابه الظاهريّ بين طرفي الصورة، وصور كليّة ترسم منظراً متكاملأً، أو تستقصي ملامح مشهد محدّد. والصورة الجزئيّة هي الغالبة على هذا الشعر، وقد مرّ بنا كثير منها، وأمّا الصور الكليّة فهي قليلة، وقد توسّل الشعراء إلى رسمها بالحركة والتجسيد، كما في قول ابن خروف يهجو الطبيب الدّخوار، ويجسّد طبّه سيفاً راح يحمله ويهاجم به العباد الذين أمعنوا في الهرب والتخفيّ منه، ولكنّ أبواب النجاة سدّت في وجوههم<sup>(١٥٣)</sup>:

طبع المهذب طبّه	سيفاً وصال على المهجّ
باب السّلامة لا يُرى	منه ولا باب الفرج

وقد نجد بعض الشعراء يستعمل التشخيص في رسم صورته، فقد مرّت بنا الأبيات التي رفعها ابن الزويتينة إلى الملك الصالح يشكو فيها فساد القائمين على أحد الجوامع، وقد شخص الشاعر هذا الجامع وصوره إنساناً يتظلم ويشكو إلى الملك، ويرجوه أن يدفع الفساد عنه، أو يعيده إلى ما كان عليه. وهذا ابن عنين يصور الجامع الأمويّ، وقد سلسلت أبوابه، بإنسان أصابه مسّ، فشدّ بالوثاق<sup>(١٥٤)</sup>:

لَمَّا رَأَى الْجَامِعَ أَمْوَالَهُ      مَأْكُولَةَ مَا بَيْنَ نَوَابِهِ  
جُنَّ فَمِنْ خَوْفٍ عَلَيْهِ غَدَا      مَسْلَسَلًا مِنْ كُلِّ أَبْوَابِهِ

والصورة في شعر الهجاء عامة بسيطة واضحة قريبة المتناول، تقع في حدود مدركات الناس وحواسهم، ولعلّ هذا يعود إلى طبيعة الموضوع، فالهجاء، ولا سيّما إذا كان في شكل مقطوعات، يرمي إلى التأثير المباشر في نفوس المهجّوين، ومن ثمّ فإنّ التّفنّن في الصورة قد يحدّ من هذا التأثير، لأنّ الصورة الشعريّة بحاجة إلى قدر من التأمّل لفهم دلالاتها واستيعاب معناها.

## خاتمة

تمّ في الصفحات السابقة دراسة شعر الهجاء في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، وقد بيّنت هذه الدراسة أن هذا الشعر نما وتكاثر، وأنّ بواعث القول فيه تعدّدت، واتّجاهاته تتوّعت.

وأبرزت الدراسة الدور الذي اضطلع به الشعراء الشاميون في تطهير المجتمع الشاميّ من مظاهر الفساد الخلقي والاجتماعي، وذلك بتقبيح هذه المظاهر، وإبرازها في صور تدعو إلى إنكارها والابتعاد عنها.

وأوضحت الدراسة أهميّة شعر الهجاء في دراسة بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في بلاد الشام زمن الحروب الصليبية، فهو يصدّر التنافس بين الشعراء وبواعثه الشخصية والمذهبية، ويصف فقر بعض الشعراء وسوء أحوالهم الاقتصادية، ويرسم صوراً طريفة لبعض مظاهر السلوك اليوميّ في المدن الشاميّة، ويكشف عن طائفة من التعديّات التي كانت تصدر عن بعض الحكام والقضاة وغيرهم من القائمين على شؤون الرعيّة.

وأخيراً، بيّنت الدراسة أنّ جُلّ شعر الهجاء كان في مقطوعات قصيرة، وأنّ هذا الشعر أثر اللغة السهلة القريبة، والصورة الواضحة الدانية.

## الحواشي:

- (١) مسالك الأبصار، (ميكروفلم) ١٥: ٣٠٥، وانظر الأدب في بلاد الشام: ٢٠٥.
- (٢) عقود الجمان (ميكروفلم) ٣: ١٨٩.
- (٣) العماد الأصفهاني، الخريدة (قسم العراق) ١/٣: ١٣٦.
- (٤) عقود الجمان (ميكروفلم) ٦: ١٩٩، وانظر الأدب في بلاد الشام: ٣٥٧.
- (٥) المصدر السابق ٦: ٥٣٦.
- (٦) المصدر السابق ٧: ٤٤.
- (٧) المصدر السابق ٧: ٢٤٣.
- (٨) المصدر السابق ٣: ٦٧.
- (٩) فوات الوفيات ١: ١٣٤.
- (١٠) المصدر السابق ٢: ٢٨٢.
- (١١) ثمة شريط مصور (ميكروفلم) في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية يحتوي على بعض أشعار ابن منير، وهو صورة عن مخطوط رقم ٢١٠ بمكتبة أمبروزيانا.
- (١٢) الكواكب الدرية: ١٧٠.
- (١٣) انظر: الوافي بالوفيات ١: ٤٢٧-٤٢٨، الذيل على الروضتين: ١٨١.
- (١٤) فوات الوفيات ٢: ١٩٤.
- (١٥) انظر الذيل على الروضتين: ١٤٨، ٢١١، فوات الوفيات ٢: ٣٥٢.
- (١٦) الخريدة، قسم الشام ١: ٧٦، ٧٩.
- (١٧) المصدر السابق ١: ٧٦.
- (١٨) شعر ابن القيسراني: ٩٠.
- (١٩) الحشرية: هم الذين يباشرون مال من يموت، وليس له ولد. صبح الأعشى ٣: ٤٦٠.
- (٢٠) جمهرة الإسلام (ميكروفلم) ١: ٨٢.
- (٢١) شعر ابن منير (ميكروفلم): ١٥٠.
- (٢٢) ديوان ابن منير: ١٣٧.

- 
- (٢٣) الخريدة قسم العراق ٣/١: ١٣٦.
- (٢٤) عيون الأنباء: ١٦٥.
- (٢٥) المصدر السابق: ٦١٥.
- (٢٦) المصدر السابق: ٦١٦.
- (٢٧) المصدر السابق: ٦١٤.
- (٢٨) المصدر السابق: ٦٢٥.
- (٢٩) عيون التواريخ ١٢: ٤٨٢.
- (٣٠) عقود الجمان (ميكروفلم) ١: ٣٨٣.
- (٣١) ديوان ابن عنين: ١٨٨.
- (٣٢) انظر فصلاً من هذه الرسالة في معجم الأدباء ٥: ٢٢١٨.
- (٣٣) فوات الوفيات ٣: ١٩٤.
- (٣٤) الوافي بالوفيات ٢٢: ١٩٦.
- (٣٥) ديوان العرقلة: ٩٤.
- (٣٦) فوات الوفيات ٢: ٢٨٣.
- (٣٧) المصدر السابق ٢: ٢٨٤.
- (٣٨) ديوان ابن الساعاتي ٢: ١٥٤.
- (٣٩) فوات الوفيات ٢: ٢٨٤.
- (٤٠) بغية الطلب ٧: ٢٠٥.
- (٤١) ديوان العرقلة: ٦٣.
- (٤٢) انظر الخريدة قسم الشام ٢: ١٨٥.
- (٤٣) عيون الأنباء: ٧١٧.
- (٤٤) فوات الوفيات ٢: ٣١٨.
- (٤٥) عيون الأنباء: ٦٥١.
- (٤٦) المصدر السابق: ٦٥٢.
- (٤٧) ديوان ابن عنين: ١٧٩.

- 
- (٤٨) عيون الأنبياء: ٦٥٣.
- (٤٩) ديوان ابن عنين: ١٩٤.
- (٥٠) الوافي بالوفيات ٩: ٤٠.
- (٥١) ديوان ابن عنين: ١٣٣.
- (٥٢) فوات الوفيات ١: ١٣٥.
- (٥٣) الخريدة، قسم الشام ٢: ٣٨٧.
- (٥٤) عيون التواريخ ١٢: ٣٣٦.
- (٥٥) المصدر السابق ١٢: ٣٣٦.
- (٥٦) ديوان ابن عنين: ٢٣٩.
- (٥٧) ديوان العرقلة: ٣٥.
- (٥٨) فوات الوفيات ٢: ٢٨٥.
- (٥٩) انظر حديثاً عن مدح المدن في كتاب: الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري: ٢٨٨.
- (٦٠) ديوان ابن منير: ١٦٧.
- (٦١) ديوان ابن عنين: ٢٣٠.
- (٦٢) الخريدة، قسم العراق ٣/١: ١٢٤.
- (٦٣) ديوان ابن دننير: ٦٠٦، وللاستزادة انظر: ٥٩، ١٩٨، ٦٥٦.
- (٦٤) ديوان ابن الساعاتي ٢: ٧٠.
- (٦٥) معجم الأدباء ٤: ١٧٠٣.
- (٦٦) فوات الوفيات ٣: ٨٧.
- (٦٧) المصدر السابق ٣: ٩١.
- (٦٨) المصدر السابق ١: ٣٠٧.
- (٦٩) بغية الطلب ٩: ٤٢٤٣.
- (٧٠) ورد ما بين علامتي التنصيص في بغية الطلب هكذا "وعشو يمنح" فلا يستقيم به الوزن والمعنى، والتصحيح من كتاب: شذرات من كتب مفقودة: ٣٩٩.
- (٧١) فوات الوفيات ٣: ٣٥٨.

- 
- (٧٢) المصدر السابق ١: ١٣٩.
- (٧٣) عيون الأنباء: ٧٢١.
- (٧٤) ديوان فتيان: ٣٥٩.
- (٧٥) تالي كتاب وفيات الأعيان: ١٤٢.
- (٧٦) فوات الوفيات ٢: ١٣٣.
- (٧٧) الخريدة، قسم الشام ٢: ٢٧٣.
- (٧٨) ديوان ابن دنينير: ٥١٦.
- (٧٩) المصدر السابق: ٦٠٩.
- (٨٠) عقود الجمان (ميكروفلم) ٣: ٢٣٣.
- (٨١) ديوان ابن الساعاتي ١: ١٤١.
- (٨٢) ديوان ابن عنين: ٢٠٨.
- (٨٣) المصدر السابق: ٢٠٣.
- (٨٤) المصدر السابق: ٢٣٦.
- (٨٥) المصدر السابق: ٩٤.
- (٨٦) ديوان ابن منير: ١٤٦.
- (٨٧) ديوان فتيان: ١٣١.
- (٨٨) الذيل على الروضتين: ٢٢٢.
- (٨٩) فوات الوفيات: ١٣٤.
- (٩٠) ديوان ابن عنين: ١٤٣.
- (٩١) المصدر السابق: ٢٣٥، وتنسب الأبيات كذلك إلى ابن المسجف العسقلاني: فوات الوفيات ٢: ٢٨٥.
- (٩٢) المصدر السابق: ٢٢١.
- (٩٣) ديوان ابن دنينير: ٥٧٧.
- (٩٤) الذيل على الروضتين: ١١٠.
- (٩٥) ديوان ابن عنين: ١٣١.
- (٩٦) المصدر السابق: ١٩١.



- 
- (٩٧) الذيل على الروضتين: ٢٠١.
- (٩٨) المصدر السابق: ٢٠١.
- (٩٩) المصدر السابق: ٢٠١.
- (١٠٠) المصدر السابق: ٢٠١، ولم يذكر أبو شامة اسم الشاعر.
- (١٠١) فوات الوفيات ١: ١٣٨.
- (١٠٢) المصدر السابق ١: ١٣٩.
- (١٠٣) الذيل على الروضتين: ٢١٤.
- (١٠٤) المصدر السابق: ١٤٨.
- (١٠٥) فوات الوفيات ٢: ٣٥٢.
- (١٠٦) الذيل على الروضتين: ٢١٤.
- (١٠٧) المصدر السابق: ٢١٤.
- (١٠٨) المصدر السابق: ٢١٥.
- (١٠٩) المصدر السابق: ٢٣٦.
- (١١٠) المصدر السابق: ٢٣٦.
- (١١١) ديوان ابن عنين: ٢٠٥.
- (١١٢) فوات الوفيات ١: ١٢٧.
- (١١٣) المصدر السابق ١: ٢٠٣.
- (١١٤) وفيات الأعيان ٥: ٣٣٤-٣٣٥.
- (١١٥) فوات الوفيات ٢: ٣١٩.
- (١١٦) فوات الوفيات ٢: ٢٨٤.
- (١١٧) المصدر السابق ١: ١٠٣.
- (١١٨) ديوان ابن الساعاتي ٢: ١٣.
- (١١٩) الخريدة، قسم الشام ٢: ٩٨.
- (١٢٠) ديوان ابن عنين: ٢٣٥.
- (١٢١) فوات الوفيات ١: ١٣٦.

- 
- (١٢٢) ديوان ابن عنين: ١٣٧.
- (١٢٣) فوات الوفيات ١: ١٤٧.
- (١٢٤) فوات الوفيات ٢: ٢٨٤.
- (١٢٥) عقود الجمان (ميكروفلم) ٦: ٢٠٣.
- (١٢٦) ديوان ابن عنين: ١٣٥.
- (١٢٧) المصدر السابق: ٢٠٣.
- (١٢٨) شعر ابن منير (ميكروفلم): ١٧٦.
- (١٢٩) ديوان ابن الساعاتي ٢: ١٠.
- (١٣٠) ديوان العرقلة: ٥٦.
- (١٣١) ديوان ابن عنين (المقدمة): ٢٦.
- (١٣٢) المصدر السابق: ٢٢١.
- (١٣٣) المصدر السابق: ٢٠١.
- (١٣٤) فوات الوفيات ٢: ٢٨٦.
- (١٣٥) المصدر السابق ٢: ٢٨٦.
- (١٣٦) المصدر السابق ٣: ٩١.
- (١٣٧) ديوان ابن عنين: ١٣٢.
- (١٣٨) فوات الوفيات ١: ١٢٧.
- (١٣٩) ديوان ابن عنين: ١٩٧.
- (١٤٠) ديوان ابن منير: ١٤٧.
- (١٤١) الخريدة قسم الشام ١: ٢٣١.
- (١٤٢) الملك، آية: ٥.
- (١٤٣) ديوان ابن عنين: ١٨٨.
- (١٤٤) ديوان العرقلة: ٤٨.
- (١٤٥) ديوان ابن الساعاتي ٢: ١٢.
- (١٤٦) المصدر السابق ٢: ٩.

- 
- (١٤٧) المصدر السابق ٢ : ٧٢ .  
(١٤٨) فوات الوفيات ٢ : ٢٨٤ .  
(١٤٩) ديوان ابن منير : ١٦٧ .  
(١٥٠) فوات الوفيات ٣ : ٩١ .  
(١٥١) ديوان ابن دنينير : ٥٧٥ .  
(١٥٢) ديوان ابن عنين : ١٨٨ .  
(١٥٣) فوات الوفيات ٢ : ٣١٨ .  
(١٥٤) ديوان ابن عنين : ١٥٤ .

## المصادر مرتبة هجائياً حسب عنوان الكتاب

### أولاً- المصادر المخطوطة:

- ١- جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام، مسلم بن محمود الشيزري، ميكروفلم رقم ٩٢٢٣ أدب، معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة.
- ٢- شعر ابن منير الطرابلسي، مخطوط رقم ٢١٠، مكتبة أمبروزيانا، وعنه شريط مصور في مركز الوثائق والمخطوطات في الجامعة الأردنية.
- ٣- عقود الجمان من شعراء هذا الزمان، أبو البركات مبارك بن أبي الشعار الموصلي، ميكروفلم رقم ٣٣٩ تاريخ، معهد إحياء المخطوطات العربية، القاهرة.
- ٤- مسالك الأبصار في أخبار ملوك الأمصار، ابن فضل الله العمري، ميكروفلم رقم ٣٦٥، الجامعة الأردنية.

### ثانياً- المصادر والمراجع المطبوعة:

- ٥- الأدب في بلاد الشام، عصور الزنكيين والمماليك، د. عمر موسى باشا، دار الفكر المعاصر، بيروت ودمشق، ١٩٨٩
- ٦- تاريخ دمشق، ابن القلانسي: أبو علي حمزة بن أسد، تحقيق د. سهيل زكار، دار حسان، دمشق، ١٩٨٣
- ٧- تالي كتاب وفيات الأعيان، فضل الله بن أبي بكر الصقاعي، المعهد الفرنسي، دمشق، ١٩٧٤
- ٨- تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الرّوضتين، أبو شامة المقدسي، دار الجيل، بيروت، ط٢، ١٩٧٤

- ٩- تهذيب تاريخ دمشق الكبير، الحافظ ابن عساكر، هذبه عبدالقادر بدران، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٩٧٩
- ١٠- خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، (قسم شعراء الشام) تحقيق د. شكري فيصل، المجمع العلمي العربي، دمشق، ١٩٥٥
- ١١- خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، (قسم شعراء العراق) تحقيق محمد بهجت الأثري، المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٦٤
- ١٢- ديوان ابن دنينير، إبراهيم بن أحمد (رسالة دكتوراه على الآلة الكاتبة) تحقيق ودراسة محمود شاكر سعيد، جامعة الأزهر، ١٩٨١
- ١٣- ديوان ابن الساعاتي، أبو الحسن علي بن رستم، تحقيق أنيس المقدسي، المطبعة الأمريكية، بيروت، ١٩٣٨
- ١٤- ديوان العرقلة الكلبي، حسّان بن نمير، تحقيق أحمد الجندي، مجمع اللغة العربية، دمشق، ١٩٧٠
- ١٥- ديوان ابن عنين، تحقيق خليل مردم بك، دار صادر، بيروت، ط٢، ؟
- ١٦- ديوان فتيان الشاغوري، تحقيق أحمد الجندي، مجمع اللغة، دمشق، ١٩٧٦
- ١٧- الشعر العربي في بلاد الشام في القرن السادس الهجري د. شفيق محمد الرقب، دار صفاء للطباعة والنشر والتوزيع، عمان، ١٩٩٣
- ١٨- شذرات من كتب مفقودة في التاريخ، استخرجها وحققها د. إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨
- ١٩- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، أبو العباس أحمد بن علي الفلقشندي، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٣
- ٢٠- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ابن أبي أصيبعة، تحقيق د. نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت.
- ٢١- عيون التواريخ، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق د. فيصل السامر ونبيلة عبدالمنعم، وزارة الإعلام العراقية، ١٩٧٧

- 
- ٢٢- فوات الوفيات، محمّد بن شاکر الکتبي، تحقيق د. إحسان عباس، دار  
صادر، بيروت، ١٩٧٣
- ٢٣- الكواكب الدرّية في السيرة النورية، تقي الدين أبو بكر بن أحمد ماضي  
شهبه، تحقيق د. محمود زايد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٧١
- ٢٤- معجم البلدان، ياقوت بن عبد الله الحموي، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩
- ٢٥- وفيات الأعيان وأنباء الزّمان، ابن خلكان، تحقيق د. إحسان عباس، دار  
صادر، بيروت، ١٩٦٨.